الإحاطة والاحتياط

من شبه الوقوع فيما أخبر به صلى الله عليه وآله وسلم عند قرب الساعة من العلامات والأشراط

بِقَلَمِ
خَادِمِ السَّلَفِ
أَبِي بَكْرٍ العَدَنِي ابْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي بَكْرٍ المَشْهُورِ

الإحاطـة والاحتياط

(١)

فرع الدراسات وخدمة التراث
adengroup@hotmail.com
الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني..





ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

[محمد: ١٨]

المقدمة

الحمد لله الذي يسر وسائل الإبلاغ وأسباب البلاغ، فأقام بها الحجة على عباده وجعلها في متناول كل يد وصقع وبلد، وهو الهادي من يشاء إلى صراط مستقيم . وصلى الله وسلم على نبي الإيمان المرسل بالعلم الشامل والدين الكامل والمنهج المتكامل، ولا يزيغ عنه إلا ذو ضلال، وصلى الله على آل النبي وصحابته وجميع التابعين لهديه وسنته .

وبعدُ فإني لما شهدتُ في حاضر زماني كثرةَ النــزاع والاختلاف بين طلبة العلم وحملة الأمانة الدينية، وانشغال الغالبية من أهل هذا الفن بتأييد القوي وخذلان الضعيف، والتأثر بالرموز الحاكمة وخدمتها والتفاني في إرضائها وطلب مرضاتها، واشتباك أمر العامة وهرجهم ومرجهم بين هذه المنازعات والمفارقات حتى كاد أن يفتتن الضعفاء في أمر حقيقة هذا الدين، وتضطرب عند الناشئة المخدوعة قديم الموازين، وتجرأت ألسنة الرويبضات على المنابر، وأُخرس العلماء الوارثون واتُّهموا تُهماً تهتزّ منها المشاعر وتُهان بها الشعائر، ﴿ ذلك ومن يُعَظِّم شعائرَ اللهِ فإنها من تقوى القلوب ﴾ .

واختلط الأمر على كثير من المتأخرين، وبدأ الإحباط والإفراط يمزق قواعد اليقين والتمكين، ونقض الخلف كثيراً من أعمال ومعتقدات السلف الأولين، مما ظنوه بدعاً وضلالاً، واعتقدوه كفراً وإضلالاً، وهم لا يعلمون أنهم في حماةِ زمانٍ تحدث عن أخباره النذير البشير، وأبرز ملامحه وسماته وعلامات رجاله من علماء النقير والقطمير، وفقهاء القصعة التى تتداعى عليها الأمم والأكلة لتقرير المصير وفضح الإفك العصري ومن وراءه، وما أشبه الليلة بالبارحة عشية نــزول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ ما اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ والَّذِي تَوَلىّ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١].

ونحن بهذا لا نَدِينُ أحداً من متأخري الأمة بعينِه ولا نقدح في سلامة مبانيه، إذ كلُّنا في عصرٍ تشابهتْ أقوالُه وأحوالُه، وصارت ثقافتُنا ثقافةَ إعلامٍ لا ثقافةَ إسلامٍ، وتمنهجتْ مفاهيمُنا بينَ جعجعةِ الاستشراقِ وسفسطةِ الاشتراكيين، وصار أسعدُ الناسِ بالدنيا لُكَعُ ابنُ لُكَع، لا يُهِمُّهُ مِنَ الدِّينِ إِنْ هَبَطَ أو ارتفع، إنمّا يُشْغِلُه هُبُوطُ وارتفاعُ الدولار والدينار، ويزعجه صوت الأذان في رابعة النهار، وظهر الشحُّ المطاعُ والهوى المتبع والدنيا المؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، وهذه منابر البدعة العصرية تزداد كل يوم وتتعدد، ومن أجهزة الإعلام وصحافة الأزلام والأقلام تتردد، وضُيِّعَتِ الأمانةُ، حيث وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله.

لما رأيتُ كل ذلك جمعتُ بعد كل هذا تذكيراً لنفسي ولمن أحب من أهل عصري طائفةً من أحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لنتعرف على حقيقة الأمر من حيث هو لا من حيث نحن ولا من حيث ما نرى ونسمع .

ففي هذه الأحاديث موازين القسط التى لا تظلم ولا تميل، ومن خلالها يدرك القارئ أننا في حاجةٍ ماسةٍ لقراءة السُّنَّةِ كتوثيقٍ تاريخيٍّ عميقِ التأصيل، يقدّم لنا حقائق الأوعية الناطقة بلسان الكتاب والسنة، ويفند لك دقائق علماء الفتنة، ويترجم لنا مُضِلاّتِ الفتن وشهواتِ الغي ورموزهما بما لا يدع مجالاً للدعوى، ويضع النقاط على الحروف كما يقولون، وسبحان من جعل أمره بين الكاف والنون، فإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

أمارات الساعة

للساعة أمارات وأشراط صغرى وكبرى، كان من مظاهرها الكبرى مبعث نبينا صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: ((بُعِثْتُ أنا والساعةِ كهاتينِ)) وأشار بأُصبعيه السبابة والإبهام، وتلاها الدخان، والبطشة الكبرى، والانشقاق.

وبقيت هذه الأمارات الكبرى: المهدي، وعيسى، ويأجوج ومأجوج، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها. وبين هذه الأماراتِ أماراتٌ صُغرى منها ما حَدَثَ بعد موتِه صلى الله عليه عليه وآله وسلم، ومنها ما نحن نعيشُه اليومَ، ومنها ما ستأتي به الليالي والأيام.

وهنا في هذا المجموع نلفت النظر إلى الأمارات التي تحققت في واقع الحياة وصارت إحدى الظواهر المألوفة في أنظمة المسلمين الكائنة ﴿ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحْيَى مَن حَيَّ عن بَيِّنَةٍ ﴾ والله ولي التوفيق.

انتقَاضُ العُرَى

١- قال عليه الصلاة والسلام: « لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً كُلَّما نُقِضَتْ عُرْوَةٌ تَمَسَّكَ الناسُ بالتي تليها، أَوَّلُهُنَّ نَقْضاً الحكمُ وآخِرُهُنَّ الصلاةُ، ورُبَّ مُصَلٍّ لا أمانةَ له[١] » .

حديثٌ شريفٌ من لسان مَن لا ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى﴾، يُبْرِزُ لهذه الأمةِ صورةً من صور الحياةِ الاجتماعيةِ التي تمرُّ بأمّةِ الإسلامِ تُنتقضُ فيها عرى الإسلام تتابعاً « عروة عروة »، والنقضُ لا يكون إلا بأيدي رجالٍ وأئمةٍ يُضِلُّون الناس . وأولُ صُوَرِ هذا النقضِ المَشِين «نقض الحكم» .

والحكمُ من أعلى عرى الإسلام وأهمِّها في حياة الأمة، إذ هو أساسُ التنفيذِ للأمر المراد، وله أهله المؤهلون له، وحيثُما لمحتَ حُكْمَ أهلِ الزمان في مشارق الأرض ومغاربها إنما أنت على صورةٍ لا أصل لها في مفهوم الدين وقواعده، وتاريخ النقض لعرى الحكم ليس جديداً، وإنما قد كان منذ عهود سابقة مع ظهور المُلْكِ العضوض.

---

(١) ذكره الهيثمي عن أبي أمامة في « مجمع الزوائد » من كتاب الفتن باب نقض عرى الإسلام (٧: ١٨١) .

وإنما الجديد في الأمر هو تكرر النقض كوسيلة من الوسائل لدى أهل النِّحَل والآراء وأهل السياسات والنجاسات، لتهيئة الأمة بعد النقض للحكم للمناهج المنحرفة والأفكار المجحفة، والناس في غالب أحوالهم أداةٌ طيعةٌ لأولي الأمر والنهي في كل مجتمع، ولا يسعهم عند انتقاض عروة الحكم إلاَّ الاتباع والتمسك بما يليها.

والنقض لعروة الحكم في الإسلام تسبقه معاذيرُ وتمحلاتٌ وحيلٌ ومخادعاتٌ وتجميعُ تِراتٍ يهتم بها رجال النقض حتى يبرروا فعلتهم وسياستهم، وتاريخ الأمة مشحون بهذه الأمثلة الناقضة، والعصور الإسلامية المتعاقبة تحمل من هذا النوع نماذج لا تخفى على الباحث المتأمل .

وعلى مدى سياسات النقض والهدم وانفلات العرى عروة عروة تبقى الصلاة كمظهرٍ عامٍّ تُنادي به كل جماعة، ويتكئ عليه كل نظام، وفي داخل هذه الأنظمة يصلي كثير من الناس لأداء الواجب وإسقاط الركنية؛ إلا أن الأمانة قد انتُقضت من هذه الشخوص لكثرة ما مارسوه في مجتمعات النقض من النواقض، «ورُبَّ مُصَلٍّ لا أمانةَ له»، ويؤيد هذا الحديث أبوالدرداء قال: « كُنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشَخَصَ ببَصَرِهِ إلى السماء ثم قال: «هذا أوانُ يخُتَلَسُ فيه العلمُ من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء»، فقال زياد ابن لبيد الأنصاري: كيف يخُتَلَسُ منا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنَقْرأنَّه ولنُقرِئَنَّه نساءَنا وأبنائنا، فقال: « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يا زيادُ.. إنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ من فقهاءِ أهلِ المدينة، هذه التوراةُ

والإنجيلُ عند اليهود والنصارى فماذا تُغني عنهم ؟ » قال جبيرٌ: فلقيت عبادة بن الصامت، قلت: ألا تسمعُ إلى ما يقوله أخوك أبو الدرداء، فأخبرتُه بالذي قال أبوالدرداء، قال: صدق أبو الدرداء، إنْ شِئْتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بأوّلِ علمٍ يُرفع من الناس: الخشوع.. يوشك أن تدخلَ مسجدَ جماعةٍ فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً » رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيحٌ، وأقرَّه الذهبيُّ والدارمي . راجع « البدعة » د. عزت علي عطية ص١٩٤ .

٢- قال عليه الصلاة والسلام: « لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، ولَتَكُونَنَّ أَئِمَّةٌ مُضِلُّون، ولَيَخْرُجَنَّ على أَثَرِ ذلك الدَّجَّالُونَ الثَّلاثَة » [(١)].

وهذا الحديث الآخر في ذات المعنى يشير إلى أنَّ النقض حاصلٌ لا محالة، وأن من مظاهره ظهورُ حكامٍ وأمراءَ وعلماءَ ينتفعون بهذا النقض ويروجون له، والإضلال من هؤلاء ينشأ نتيجة الطغيان وجرأة المفتونين، والإضلال في سياسة النقض ترسيخٌ لمواقع المضلين وتهيئة العقول لقبول حجج الناقضين، من ذات مقاييس الأمة في الدعوة للاستمساك بالدين.

ومتى ما نقض الحكم فالعرى الباقية تتلاحق تبعاً على مدى الأزمان بأيدي الدعاة المضلين، الذين ينقضون العرى من داخل الحظيرة الإسلامية، وتبرز بعد ذلك معايب النقض في شمول الحرام

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » عن حذيفة بن اليمان (٤: ٤٦٩) باب الفتن والملاحم، وفي « كنــز العمال » (١٤: ٢٩٧) .

والشبهة والأكاذيب والدسائس، وحب الحياة وبيع الدين بالدنيا . . إلخ .

وأما الدجالون الثلاثة فهم اليوم الذين يمثلون رؤوس الفتنة في عالم الأمة الإسلامية بمنهجيتهم الدينية في كل من الحجاز والشام واليمن.

إذا وسد الأمر إلى غير أهله

١- قال عليه الصلاة والسلام: « إذا ضُيِّعَتِ الأمانة فانتظرِ الساعةَ، قيل: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظرِ الساعةَ »[(١)] .

الأمانةُ هي كافة مظاهر المسؤولية التي استرعى الله عليها عباده، وهي التي أشفقت من حمل ثقلها السماوات والأرض والجبال، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢] .

وهي في حديث أبي هريرة مقرونةٌ بأمرِ الأمة وولايتها، فإذا ما وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فقد ذهبت الأمانة، وعند ذهابها وتبوُّؤِ الولاية غير أهلها فهي علامة من علامات الساعة.

وكان صلى الله عليه وسلم يشير إلى أصحابه بثقل الأمانة في الأعناق، ويبرز لهم صورها في حياة الناس آخر الزمان، ومن ذلك حديث حذيفة، قال: « حَدَّثَنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) رواه البخاري (١: ١٢٣)، (٨: ١٢٩)، والبيهقي في « السنن » (١٠: ١١٨) .

حديثين، رأيتُ أحدهم وأنا أنتظرُ الآخر، حَدَّثَنا أنّ الأمانةَ نــزلَتْ[1] في جَذْرِ قلوبِ الرجال، ثم عَلِمُوا من القرآن ثم عَلِمُوا من السنة . وحدثنا عن رَفْعِها، قال: « ينامُ الرجلُ النومةَ فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيظلُّ أثرُها مثلُ أثر الوكت، ثم ينام النومةَ فتُقبض، فيبقى أثرها مثل المجل، كجمر دحرجتَه على رجلك فتنفط فتراه منبثراً وليس فيه شيء، ويصبحُ الناس يتبايعون ولا يكادُ أحدٌ يؤدي الأمانة فيُقال: إنّ في بني فلانٍ رجلاً أميناً، ويقال للرجل: ما أعقلَه وما أظرفَه وما أجلدَه وما في قلبه حبِّه من خردلٍ من إيمان » متفق عليه [2] .

وضياع الأمانة في كافة الأحوال سببه نقض العرى، ونقض العرى يبدأ بنقض الحكم، وصورة النقض في هذه الحالة أن يوسد الأمر إلى غير أهله، والإسناد إضافة الشيء إلى الغير، فإن كان الإسناد خطأ انفرطت العرى وتشتت المجتمع .

ومن صور الأمر المسند القضاءُ، والفتيا، والتربية والتعليم والثقافة، وسياسة المال والقتصاد. ولكل صورة من هذه الصور رجالٌ يجمعهم التأهيل والأحقية في الأمر مرتبطين بالعرى العليا وهي الحكم، والحكم أعلى مراتب الاسترعاء، وأساسها في الإسلام الخلافة، والإمارة، والشورى .

---

(١) وفي رواية نــزلت من السماء .

(٢) رواه البخاري (٨: ١٢٩)، (٩: ٦٦، ١٤٤)، ورواه مسلم في كتاب الإيمان ص٢٣٠ .

وليس في الإسلام ما استحدثه المتأخرون في هذا الموقع الخطير من مسميات الحكم والسياسة، ولو كان المنهج ذاته إسلامياً. فلا الملك العضوض، ولا الحزبية الواحدة ولا المتعددة ولا مفهوم الديمقراطية ولا الاشتراكية، ولا العسكرية، ولا الدكتاتورية ولا الجماهيرية، ولا الجمهورية، ولا السلطنة، ولا المشيخة ولا ماشابهها من المسميات تقوم بذات الدور المرسوم في الإسلام، والأصل في انعدام الشيء انعدام أهله، وانعدام أهله ظاهرة غير صحية في الواقع الإسلامي، وأساس الفوضى في طباع الأمانة نقض الحكم وإسناد الأمر إلى غير أهله .

قبض العلم

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً اتخذ الناس رؤساء جُهّالاً فسُئِلوا فأَفْتَوْا بغيرِ علمٍ فضَلُّوا وأَضَلُّوا » رواه البخاري[1] .

وقبض العلم على هذا المفهوم النبوي يفتح للمؤمن معنى يتلاءم مع ما يراه في الواقع المتعالم، فالعصر الذي نحن نعيشه يبرز لنا شعور أهله ومتعالميه بأن العلم في خير وقد ساد الكتاب والشريط واتسعت وسائل الإبلاغ والتبليغ، وصار للعلم الشرعي معاهد وكليات وتلامذة وتلميذات؛ ولكن الحقيقة الكامنة في صدور أهل العلم تذهب بذهابهم وتقبض بقبضهم حتى لو بقيت كتبهم من خلفهم، وتبقى للناس صورة العلم ورمزه .

وتتفاوت هذه الظاهرة من صقع إلى صقع ومن بلد إلى بلد، ففي بعض البلدان يمكن أن يفسر القبض بمعنى أو بآخر، وهو ما سبَّبَ الانقباضَ والعزلةَ لعلماء الدين الأثبات، فينعزلوا عن الحياة لما يعتريهم من القبض والهم، فيتخذ الناس رؤساء جهالاً، هؤلاء الجهال منهم من لا يعرف من العلم الشرعي شيئاً، ومنهم من عرف منه نصيباً ولكن هواه يسبق فتواه وجهله، أي: سفهه وبطره

---

(١) رواه البخاري (١: ٥)، ورواه مسلم في كتاب العلم ص١٣، والترمذي برقم (٢٦٥٢) .

يجعله محرفاً للعلم مغيراً حقيقة مقصوده الحق، هؤلاء الجهلاء المتجرئون هم المعنيون بالأحاديث الأخرى، ومنها:

((يقبضُ اللهُ العلماءَ ويُقبض العلمُ منهم، فينشأ أحداثٌ ينـزو بعضهم على بعض نـزو العير على العير، يكون الشيخ فيهم مستضعفاً))[1]، وفي هذا الحديث زيادة أخرى تفسر السلوك الناشئ لدى الأحداث عند قبض العلماء وقبض العلم .

والقبض لا يقف في معناه عند زوال العلم بزوال رجاله، وإنما يفهم من القبض قبض كافة مظاهر نشر العلم الحقيقي بقبض شيوخه وأئمته كعلم المساجد وحلقات الزوايا والأربطة التعليمية ذات النمط التقليدي البسيط المتسم أهله بالأدب والسكينة والخشوع، ليحل محلها مظاهرُ معرفيةٌ تحمل صورة العلم وتفتقر إلى حقيقته، وتمثلها المنهجية الحديثة وظواهرها المنقولة عن طرق التعليم في بلاد الكفر والشرك والتبعية، ويكون من ثمرات هذه المؤسسات المعرفية ظهور أحداث ينـزو بعضهم على بعض[2] .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد، وله شواهد عديدة في ((العزلة)) للخطابي، وفي ((المسند)) لأحمد، وفي البخاري بلفظ: ((يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن)) .

(٢) النـزو هو ركوب الفحل على الأنثى، ولعل فيه إشارة إلى الأخلاق في آخر الزمان، حتى يمارس هؤلاء الأحداث الشذوذ الجنسي فيما بينهم، وهو أحد المعاني الملائمة لمفهوم النـزو .

ومفهوم النــزو يحتمل معانٍ عدةٍ كلها لا تتعدى ما نراه ونشهده من سلوك الأحداث في المدارس والكليات للبنين والبنات في مجموع العالم الإسلامي، ففي هذه المؤسسات المعرفية وأقسامها المتعددة يشهد المتأمل ما تفرزه آثار التعليم العصري على طباع التلاميذ والتلميذات، وانشغالهم منذ المراحل الأولى بالتيارات والأحزاب والانتماءات حتى تصير المدرسة هي الموقع المخصب للصراع بين طبقات المجتمع بالمنظور السياسي والديني، ويزداد « النــزو » بعد أن يصبح الفرد منهم عضواً عاملاً في مؤسسات الأنظمة وخدماتها حيث يطبق كافة المفاهيم التي درسها على الواقع تطبيقاً يوسع شقة الخلاف بين طلاب العلم، ويغرس العداوة والبغضاء بين أهل المجتمع الواحد، كما هو مشاهد وملاحظ، ويزداد الوضوح في معنى الحديث عند قوله صلى الله عليه وسلم: « ويكون الشيخُ فيهم مستضعفاً » والشيخ هو الرجل المتقدم في العمر، ولا شك أن المقصود به هنا بعض الشيوخ الذين تدمغهم الحاجة إلى ملازمة الأحداث في صفوف التعليم والداخليات حيث لا يسعه في غمرة ما يراه من طيش الناشئة وشعورهم بالجدارة في كل شيء إلا أن يحوقل ويسترجع ويجاريهم بصمته وعدم اعتراضه خشية انقطاع رزقه ووظيفته .

والعلم في المفهوم الإسلامي معنى أوسع من المعارف القرآنية والكتابية وثمراتها، وبذات الحال يكون القبض، فالعلم يعني أيضاً الخشوع، وأن من علامات العلم المقبوض رفع الخشوع في المساجد،

شاهده حديث أبي الدرداء، وفيه: « قال جبير: فلقيتُ عُبادة ابن الصامت، قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء، فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء، قال: صدق أبوالدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس.. الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعا » رواه الترمذي والحاكم.

وهذه الظواهر المبينة في الحديث تخلق في الواقع أثراً خاصاً بيَّنَهُ حديث معاذ من رواية الطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا تزالُ الأمةُ على شريعةٍ حسنةٍ ما لم يظهر فيهم ثلاث: ما لم يُقبض العلم، ويكثرْ منهم ولدُ الخَبَثِ - أي الزنا - ويظهرْ فيهم السّقّارون»، قالوا: وما السَّقَّارُون ؟ قال: « بَشَرٌ يكونون في آخر الزمان تَحِيَّتُهُمْ بَيْنَهُمُ التَّلَاعُنُ » .

قلت: والسقارون فيه معنى أرجو أن يكون صحيحاً، فالعامة تسمي أعواد الدخان التي يشربها أهل هذا الزمان (سقارة) وسيجارة، أي الدخان، ومنهم من تسمعه يحيي صاحبه أول ما يلقاه بالشتم واللعن في المقاهي والملاعب والطرقات.

تداعي الأمم

قال عليه الصلاة والسلام: «يُوشِكُ أَنْ تَدَاعى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ كما تَدَاعى الأَكَلَةُ على قَصْعَتِها، قالوا: أَمِنْ قِلَّةٍ نحن يا رَسُولَ الله ؟ قال: لا، أنتم يومئذٍ كثيرٌ ولكنَّكُم غثاءٌ كغُثاء السيل »[1].

هذا الحديث الصحيح يبرز لنا معالم مرحلة كاملة في تاريخ أمة الإسلام أنه تاريخ تداعي الأمم الأجنبية على القصعة الشهية، وهو المرحلة المعروفة بمرحلة الغثائية، وهي مرحلة تاريخية بدأت منذ اهتمام الأنظمة العالمية بالوطن العربي والإسلامي كأحد مصادر الطاقة وأحد الأسواق الاستهلاكية لمنتوجات الأمم الصناعية، إضافة إلى أهمية الموقع الاستراتيجي والثروات المتنوعة .

وقد شهدتْ سنواتُ الحرب العالمية حقيقة هذا التداعي عندما بدأت الدول المعنية بالأمر تشرف على تقسيم تركة الدولة العثمانية في الوطن المتفكك، ومن ثم بدأت مجتمعة ومتفرقة على تنفيذ سياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) لاحتواء نقمة العالم وتسييس مرحلة

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٢: ١٠٣) عن ثوبان، ورواه أبو داود بزيادة: «ولَيَنــزِعَنَّ اللهُ مِن صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، ولَيَقْذِفَنَّ اللهُ في قُلُوبِكُمُ الوَهَن»، فقال قائل: يا رَسُولَ اللهِ وما الوَهَنُ ؟ قال: « حُبُّ الدُّنيا وكَرَاهِيَةُ المَوْتِ ».

الاستعمار، وكان أول نجاحٍ لهذه التفرقة غير المحمودة منصباً على نقض عروة الحكم وإسناد الأمر إلى غير أهله .

وقد اجتهد المستشرقون في تمهيد الطريق لهذه المرحلة، ووضعوا للأنظمة الاستعمارية كافة الدراسات والتقارير المبيِّنَة مواطن القوة والضعف في الجسد الإسلامي، وألقوا بكافة ثقلهم الفكري في خدمة الصليبية والسياسة الاستشراقية العالمية، وفي هذا المضمار كتبت إحدى مجلات التبشير (إن نــزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائماً للمجهودات التي تبدل في سبيل التربية النصرانية، والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية، إن من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية، وسوف لا يمضي غير زمن قصير حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية [1]).

وفي عام ١٩١١م اختتم القس (ينغ) تقريراً له في مؤتمر لينكو فقال: (إنه قد أزف الوقت لارتقاء العالم، وسيدخل الإسلام في شكل جديد على الحياة والعقيدة، ولكن هذا الإسلام الجديد سينــزوي في النهاية ويتلاشى بالنصرانية)[2].

وكانت سياسة إعادة تقسيم تركة الرجل المريض (تركيا) وترسيم الحدود بعد الحرب العالمية الثانية هي إحدى الثمرات التي جناها الاستعمار الأوربي من هذا النشاط. إضافةً إلى خلق الكيان

---

(١) عن كتاب ((الغارة على العالم الإسلامي)) ص١٩ .

(٢) المصدر السابق ص١٠٨ .

الصهيوني في الوطن العربي، وشطر السياسة العالمية إلى غربية وشرقية، وبدء سياسة المعاهدات والحماية والتعاون الاقتصادي، وبذر فكرة التيارات والأحزاب السياسية في الأوطان الممزقة معتمدة على تلامذة المدرسة الاستشراقية الذين تهيأت لهم سبل الدراسات الحديثة في بلدان الغرب والشرق .

وسارت سياسة الأنظمة العالمية سيراً حثيثاً في تغريب الأوطان الإسلامية وعزل بعضها عن بعض وإيجاد أنواع من الاستقلالية الفكرية والسياسية لكل نظام، والتركيز على نقض الحكم في هذه المناطق وإسناد الأمر في كافة نواحي الحياة إلى غير أهله .

ومع أن سياسة نقض الحكم في العالم الاسلامي ليست جديدة فقد قامت الأنظمة الإسلامية بنقض حكم بعضها البعض عن طريق الحرب والفتن وغيرها، إلا أن تلك العوامل كانت في داخل الحظيرة الإسلامية وناتجة عن أطماع ورغبات ذاتية. أما سياسة نقض الحكم في هذه المرحلة فيمتاز بكونه تنفيذاً لرغبة خارجية، وسياسة عالمية .

وقد تلخصت ظواهر النقض في أوائل المرحلة الغثائية على ما يلي:

١- تفتيت وحدة الأوطان وتشجيع التجزئة ودعم عوامل التفرقة بين القبائل والجماعات والعشائر .

٢- وضع المعاهدات المنفصلة عن بعضها البعض مع الحكام والمشايخ ورجال القبائل والسلاطين والأمراء وغيرهم من رموز

التأثير القبلي والعشائري مقابل أموال وجرايات تربطهم بالسياسة العالمية، وإبطال مفعول علاقات هؤلاء بكافة مشايخ ورجال الإصلاح وكبار أهل البيت النبوي أولي الجاه[1] .

٣- رسم دسائس الانقلابات الثورية ودعم رموزها .

٤- غرس الأحزاب السياسية ذات المبادئ المتعارضهة والقادرة على تعميق الصراع .

٥- تسليح فئات النـزاع الاجتماعي والقبلي وتشجيع الطائفية والعرقية لبث القلق في الكيانات السياسية وزعزعة أمنها .

٦- استخدام الضغوط السياسية والاقتصادية والعسكرية في سبيل تهيئة الرموز المناسبة في كراسي الحكم .

٧- استقطاب الناشئة والتلاميذ إلى التعلم في عواصم الأنظمة الاستعمارية لزرع المفاهيم المغلوطة عن فوائد الاستعمار في أذهانهم .

٨- تحسين الخطط السياسية والشعارات النظرية في عقول المثقفين كالديمقراطية، والاشتراكية، والحرية، والثورية، وإيجاد

---

(١) كان هؤلاء المشايخ وآل البيت لهم مقامات محترمة لدى السلاطين والقبائل فلا يمكن لأحد أن يخالف ما يأتون به من الصلح وفض المنازعات وتأمين الطريق وإقامة الحوط الآمنة، وكانوا يمثلون معادلَ أمنٍ ضروريٍّ في المناطق التي يعيشون فيها حتى جاءت سياسة الاستعمار.

جيل مثقف يخدم هذه الشعارات المتناقضة ويؤمن بها ويدافع عنها .

٩- عزل الدراسة الحديثة بكافة وسائل المعرفة عن تأثير الدين ورجاله، ووضع مناهج محدودة للتمويه على عقول العامة .

١٠- اجتذاب علماء الفتنة، ومفكري الشهادات والمرتبات وموظفي الخدمات الحكومية الذين يختلون الدنيا بالدين.

ومن خلال هذه السياسات ومثلها تمكنت هذه القوى من الوصول إلى أهدافها الاستشراقية بخطىً متفاوتة ومتنوعة تختلف من نظام إلى نظام ومن موطن إلى آخر .

وكان كل نقض يبدأ بالحكم، وكل نقض حكم يسهم بذاته في نقض بقية العرى، في السياسة، والاقتصاد، والقضاء، والتربية والتعليم، ووضع القوانين الاجتماعية، ومع تقدم سير هذا النقض يحل محله في كل مرتبة نقضت عراها بدائلُ ملائمة . وقد عرفت الأمة العربية والإسلامية هذه السياسات ورموزها وتنفيد خطواتها الناقضة للعرى منذ بداية عهد الغثائية .

ومنذ بداية هذا العهد المظلم والإسلام يزداد غربة على غربته ونقضاً للعرى أكبر مما قد نقض وذهب من قبل، وبرزتْ على ساحة الحياة والواقع ظواهر ومظاهر غريبة ومريبة، لا تخرج حقيقتها عن منطوق خير البرية صلى الله عليه وسلم لما كشف علامات الساعة وأوضح ملامحها في مستقبل الزمان .

قال عليه الصلاة والسلام: « إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم، فتناً كقطع الدخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع فيها أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض الدنيا » [١] . ويكاد المرء اليوم أن يمسك على قلبه مما يجده من بروز هذه العلامات وظهورها في واقع المسلمين طوراً بعد طور وحالاً بعد حال .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » عن الضحاك بن قيس، رمز له « كنـز العمال » بـ(٣١٥١٦)، ورواه الحاكم (٤: ٢٧٢-٢٧٧) .

علماء الفتنة

روى الديلمي عن علي كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتراب الساعة: « إذا كَثُرَ خطباء منابِرِكم ورَكَنَ عُلَماؤُكُم إلى وُلاتِكُمْ فأَحَلُّوا لهم الحرامَ وحَرَّمُوا عليهمُ الحلالَ فأَفْتَوْا بما يَشْتَهُون، وتَعَلَّمَ عُلماؤُكُم لِيُحِلُّوا به دنانيرَكم ودَرَاهِمَكُم، واتخَّذْتُمُ القرآنَ تجارَةً »[1] .

يُبرز صلى الله عليه وآله وسلم من مكنونات الانحدار الخلقي والديني في علماء آخر الزمان عند نقض العرى حكماً وعلماً حقيقةً خطيرةَ الأثرِ والنتيجة، مع هيمنة الأعداء، وظهور علم المؤسسات الدينية والمناهج التعليمية التابعة للأنظمة الغثائية، العلماء الذين يتدافعون إلى المنابر، فهذا في محاضرة وذاك في مناظرة والآخر في محاولة، ومثله في برنامج إذاعي أو تلفزيوني، ووظيفتهم موالاة الحكام والسكوت عنهم وعن ظواهر حكمهم ولو كان الحكم يستحل الشبهة والحرام، بل ترى أحدهم منذ بدايات طلبه للعلم وهو يتقلب في مسافات المؤسسات التعليمية المقبوضة الممنهجة حسب سياسة الأنظمة، ثم يتخرج منها باحثاً أو دارساً أو مدرساً، يمجد النظام ويبتدع الأقاويل في سبيل الإشادة به ويحمي

---

(١) « كنـز العمال » (١٤: برقم ٣٨٥٦٣) .

مؤسساته ويبرر تبعيتها في السياسة والاقتصاد للغثائية العالمية، وقد يحرف الآيات ويحمل الأحاديث النبوية ما ليس منها، ويتقاضى مقابل هذا البحث والتشكيل أجراً مادياً أو استقراراً اجتماعياً أو وظيفةً دينيةً اعتباريةً، ويجد من شيوخ هذه المؤسسات من يُمَنِّيهِ بالأجور الأخروية بما لا يجده صدور الأمة وسلفها الصالح .

ومِن هؤلاء مَن يدفعُه الشوقُ إلى المراتب الاجتماعية والدينية فيسترضي أساطين السياسة والاقتصاد بالبحوث العلمية المناقِشَةِ مسألَةَ الرّبا والتحايل على المفاهيم وتحريف التعابير، ليسمي الفوائد والعائدات المحرمة بتسميات تُبعد تُهمة الشبهة والحرام عن عشرات المنتفعين ومئات الربويين .

ومنهم من ترتفع درجتُه العلميةُ ومخصصاتُه الماليةُ فيُعَيِّنُ في إدارةٍ بنكيةٍ، ليُسْهِمَ مع لجانِ العلماء المتخصصين في تبرير استمرارية المعاملات المشبوهة ببعض اللمسات التجميلية والدراسات التحليلية. هؤلاء العلماء تعلموا ليُحِلُّوا بعلمهم شبهات الدينار والدرهم، وتفقهوا ليدافعوا عن مؤسساتهم الدينية والدنيوية يشغلون بعيوب الناس وتجميع تِراتِهم، ولا يستحون من الله وهم غارقون في حمأة الوحل والشبهة والحرام أن يصلحوا واقعهم ويستروا عن الله قبل خلقه عوراتِهم.

قال عليه الصلاة والسلام: « يَكُونُ في آخِرِ الزّمانِ دِيدَانُ القُرّاء، فمَن أَدْرَكَ ذَلِكَ الزَّمَانَ فلْيَتَعَوَّذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ، وهُمُ

الأَنْتَنُونَ، ثُمَّ يَظْهَرُ قَلانِسُ البُرُودِ فلا يُستحيَى يَوْمَئِذٍ مِنَ الرِّبا، والمُسْتَمْسِكُ يَوْمَئِذٍ بدِينِهِ كالقَابِضِ على الجَمْرَةِ، والمُسْتَمْسِكُ يَوْمَئِذٍ بدِينِهِ أَجْرُهُ أَجْرُ خَمْسِينَ»، قالوا: مِنّا أو منهم ؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ»[1].

إنه أمر خطير للغاية لو تفكر فيه المعنيون بميراث العلم وحفظ تركة الإسلام في كل مكان في هذا الزمان المريض، فكم حذر الإسلام من ظواهر علماء الفتنة كقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يَخْلَقَ القرآنُ في صدورِ أقوامٍ من هذه الأمة كما تَخْلَقُ الثياب، ويكون ما سواه أعجب لهم، ويكون أمرهم طمعاً لا يخُالطه خوفٌ، إنْ قَصَّرَ عن حقِّ اللهِ مَنّى نفسَه الأماني، وإن تجاوزَ إلى ما نهى الله عنه قال: أرجو أن يتجاوز الله عني، يَلْبَسُونَ جُلُودَ الضّأْنِ على قلوب الذئاب، أفضلُهم في أنفسِهِمُ المداهنُ الذي لا يأمرُ ولا ينهى»[2].

والعلماءُ الأَنْتَنُونَ كما وَصَفَهُمُ الحديثُ يُمَهِّدُونَ بما هم عليه وفيه من الظواهر المرضية، لبروز أمراضٍ اجتماعيةٍ أخرى تتسع وتستشري في المجتمعات، وتصيرُ قاعدةً لا استثناء، ومنه شرب الخمر والتعامل بالربا والرشوة والاتجار بأموال الزكاة، وفيها

---

(١) رواه الحاكم عن أبان عن أنس، ورمز له «كنـز العمال» (١٤: ٢٥٥) برقم (٣٨٦٣١).

(٢) رواه في «الحلية» عن معقل بن يسار. «كنـز العمال» برقم (٣٨٥٩٧).

يقول صلى الله عليه وسلم: « إذا اسْتَحَلَّتْ هذه الأمةُ الخمرَ بالنبيذِ والربا بالبيعِ والسحتَ بالهديةِ، واتجَّرُوا بالزكاةِ فعند ذلك هلاكُهم ليزدادوا إثماً » [1].

والهلاكُ هنا ليس العذاب العام النازل من السماء، وإنما هو كما يظهر ازدياد فتنتهم وانشغالهم بالدنيا وحطامها، وهو المستفاد من معنى قوله: «لِيَزْدَادُوا إِثماً»، وظواهرُ هذا الإثم ماثلةٌ للعيان في كثير من بلاد المؤسسات الدينية والدنيوية، ويكون في الغالب مظهر علمائهم مظهر تمثيل وتصنيع، تحقيقاً لنبوءته صلى الله عليه وسلم: « لا تَقُومُ الساعةُ حتّى يكونَ الزُّهْدُ روايةً والورعُ تَصَنُّعاً » [2].

والروايةُ في إحدى معانيها تمثيل الأجهزة الإعلامية لحال الزهاد والعباد وعرضها على المسلمين كأحد وسائل التثقيف الإسلامي، ومن معانيها أيضاً أن يتربع أحد علماء الفتنة منصةَ محاضرته مدة ساعة وزيادة يصف الزهد ومعانيه وما ورد فيه من الآيات والأحاديث ولا يتعدى هذا العلم من كونه رواية فقط تجري على لسانه وهو فقير منه ظاهراً وباطناً، ومثله الورع، إذ يصعب على العالم المنشغل بأمر الحياة ومظاهرها الغارق في حميا مؤسساتها

---

(١) رواه الديلمي عن حذيفة، رمز له « كنــز العمال » (١٤: ٣٢٦) برقم (٣٨٤٩٧).

(٢) رواه في « الحلية » عن أبي هريرة، رمز له « كنــز العمال » برقم (٣٨٤٩٠)، وفي « الحلية » (٣: ١١٩)، (٩: ١٥٩) .

الدنيوية القابض على مرتباته ومخصصاته من مشبوه المال -إن لم يكن حراما صرفاً- يصعب عليه أن يكون وَرِعاً، فلا يبقى له أمام تلامذته ومريديه في المدرسة والجامعة والمؤسسة الدينية إلا أن يتصنع الورع تصنعاً، وقد روي عن ابن عمر أو غيره قوله: لو صَلَّيْتُمْ حَتّى تَكُونُوا كالحنايا وصُمْتُمْ حتى تَكُونوا كالأوتارِ لَنْ يُتَقَبَّلَ ذلك مِنْكُمْ إلاّ بوَرَعٍ حاجِزٍ .

والأعجب من هذا أن علماء المؤسسات الدينية إذا تصنعوا الورع ورووا الزهد بألسنتهم يخرجون عن حد الرواية والتصنع إلى التقول والافتراء على بعض سلف الأمة، ممن يروى في حكاياتهم وأخبارهم أنهم كانوا أصدق صور الزهد والورع، ويفذلكون الأكاذيب والتهم على عباد الله الصالحين[١] .

---

(١) عن عمران ابن حصين رضي الله عنه قال: قال عليه الصلاة والسلام: ((إنّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِسان)) رواه الطبراني في ((الكبير))، والبزار، ورجاله رجال الصحيح كما في ((مجمع الزوائد)) (١: ١٨٧).

وهذا الحديث يبرز لنا من كلام الصادق المصدوق نموذجاً خاصاً من علماء اللسان الذين تخوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فصاحتهم وبلاغتهم وقدراتهم المعرفية، حتى إنهم يأخذون باللب ويستدرجون السامع لاتباع أهوائهم وتوجهاتهم، وأفكارهم المنحوتة بدلائل مضغوطة ومحرفة عن معانيها الأصلية .

زخرفة المساجد

قال عليه الصلاة والسلام: «لا تَقُومُ السّاعَةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجد»[1]، والمساجد بيوت الله، وعمارتُها مطلوبةٌ، ويترتب على ذلك جزيل الأجر والثواب؛ ولكن المظهر الممقوت عند الله في آخر الزمان أن يتعدى العمران للمساجد حَدَّه ويخرج عن دائرة الاعتدال، ومظهر هذا الأمر الإسراف في الإنفاق على تكاليف زخرفة المساجد وتزويقها ونقش جدرانها وحيطانها.

وهذه إحدى ظواهر زماننا في كثير من بلاد الإسلام، وأخطر هذه الظواهر ما تكون تحت سمع وبصر ورعاية علماء المؤسسات الدينية الذين يملكون في بلدانهم سلطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولعل من نتائج الاستغراق المشبوه في أموال الحرام أن يظهر الاهتمام لدى هؤلاء المساجد المزخرفة وعمارتها كشاغل يستشعر منه المستغرق في منكر الشبهة والحرام تكفير الخطايا، أو يجد فيه مظهراً ينافس به الأمثال والأشباه .

ويشاهد اليوم في العديد من بلاد المسلمين بناء العديد من المساجد المزخرفة ذات الطابع السياحي على غير حاجة ماسة لها، وخصوصاً تلك المساجد التى تكلفت بعض الجيوب المالية الإسراف على نفقتها

---

(١) عن أنس، ذكره « كنــز العمال » (١٤: ٢٢٢) برقم (٣٨٤٨٤) .

كمظهر جمالي في مدخل المدينة أو على شاطىء البحر أو بجوار منازل الأثرياء والأغنياء .

وتحقيقاً لما يتحدث به النبي الأمي صلى الله عليه وسلم من بروز هذه المنكرات الدينية على أيدي علماء المؤسسات الغثائية من الإسراف الفاضح على زخرفة المساجد ما شهدناه في بعض مساجد الأثرياء من وجود عدة نجفات مذهبة متدلية من سقف المسجد قيمة كل واحدة منها عدة آلاف من عملة تلك البلاد الإسلامية، ومن جانب هذه النجفات تسمع الخطباء والفصحاء يتحدثون عن تطبيق الكتاب والسنة ويشيدون بحسنات المحسنين الذين أنفقوا في سبيل الله هذه الأموال، في حين حاجة جيرانهم وكثير من فقراء بلادهم إلى أهم شروط الحياة.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «إذا زَخْرَفْتُمْ مَسَاجِدَكُمْ وحَلَّيْتُمْ مَصَاحِفَكُمْ فالدَّمَارُ عَلَيْكُمْ»[1]، وفي الحديث زيادة ظهرت في حياة المسلمين وهي تحلية المصاحف، وصارت لهذا الفن مؤسسات تجارية تبذل الأموال في سبيل تسويق هذا النوع من المصاحف المحلاة والمطرزة، ويحرص كثير من منسوبي المال الإسلامي على اقتناء هذه المصاحف وتقديمها في المناسبات الدينية والاجتماعية هدايا رمزية .

---

(١) رواه الحكيم عن أبي الدرداء، « كنـز العمال » (١٤: ٢١٠)، وأخرجه العراقي في تخريجه « للإحياء » (٣: ٣٩٦) وابن عبدالبر في « التجريد » ص٢٦٥، و«كشف الخفاء» للعجلوني (١: ٩٥).

وللمساجد المزخرفة مزايا خاصة في بلاد المسلمين، منه إغلاق هذه المساجد عن حاجة الفقراء والغرباء للنوم والراحة، حيث يوظف لهذه المساجد عمّالٌ يفتحونها قرب أوقات الصلاة ثم يغلقونها ويطردون من ينام أو يجلس فيها.

ومن ظواهرها وضع عدد من صناديق التبرعات التي تشرف عليها المؤسسات الدينية الحكومية، وإلزام الخطباء وأئمة المساجد الإشادة بهذه المؤسسات ووجوه الإنفاق، وحث المصلين على وضع أموال الصدقات والزكوات في هذه الصناديق، ولكن هذه المؤسسات ورجالها مع علماء الفتنة يستشيط أحدهم غضباً وينفعل انفعالاً إذا رأى مسكيناً أو سائلاً اضطرته الظروف أن يقف طالباً من المصلين المساعدة، ويسرد ما يحفظه من أحاديث في النهي عن السؤال وعن وظيفة المسجد في الإسلام دون أن يدله على أبواب تلك المؤسسات الجامعة للأموال، ودون أن يرى أحقيته في العطاء من ذلك المال المجموع .

ومن ظواهر هذه المساجد قوله صلى الله عليه وسلم: « تُزَخْرَفُ المساجدُ كما تُزَخْرَفُ الكنائسُ والبِيَعُ، وتُطَوَّلُ المنائرُ وتَكْثُرُ الصفوفُ مع قلوبٍ متباغضةٍ وأَلْسُنٍ مختلفةٍ وأهواءَ جَمَّة » [(١)] .

---

(١) ومن مظاهر هذه المساجد أن يمر الرجل فيها والمرأة من غير أن يركع فيها، كما قال عليه الصلاة والسلام: « إِنّ مِنْ أَشْرَاطِ السّاعَةِ أَنْ يَمُرَّ الرَّجُلُ في المسجدِ فلا يَرْكَعُ ركعتينِ»، وفي رواية: « حَتّى تُتَّخَذَ المَسَاجِدُ

قَنَاطِرَ فلا يُسْجَدَ للهِ فيها))، وهذه ظاهرة لوحظتْ في بعض بلاد المسلمين . أورده البرزنجي في ((الإشاعة)) ص٧٥ .

مظاهر الطاغوت في البنيتين الفوقية والتحتية

قال عليه الصلاة والسلام: « ما مِن نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ في أُمَّتِهِ قبلي إلا كان لَهُ مِن أُمَّتِهِ حَوَارِيّون وأصحابٌ يأخذون بسُنَّتِهِ ويقتدونَ به، ثم إنّها تَخْلُفُ من بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ ويَفْعَلُونَ ما لا يُؤْمَرُون، فمَن جَاهَدَهُمْ بيَدِهِ فهُو مُؤْمِنٌ ومَن جَاهَدَهُمْ بقَلْبِهِ فهُوَ مُؤْمِنٌ، ليس وَرَاءَ ذلِكَ مِنَ الإِيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ »[1] .

بيانٌ نبويّ، يحملُ مضموناً هاماً من مرحلتين مختلفتين: الأولى مرحلة الصدر الأول ومن يليهم من رجال الملة والإسلام، وهم الذين يأخذون سنته صلى الله عليه وسلم ويقتدون به .

ثم المرحلة الثانية مرحلةُ الخُلُوف، وعلاماتهم: يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون .

والحكمُ العامُّ المطلقُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجوبُ جهادِهم حسب مراتب الاستطاعة، فجهادٌ باليد، ومعناه حملُ السيف والسلاح، وأيضاً منه حمل القلم .

وجهاد باللسان ومنبره المسجد والمجالس ووسائل الإبلاغ .

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود في كتاب الإيمان ص٨٠، ورواه أحمد في « المسند » ص ٤٥٨، والبيهقي (١٠: ٩٠) .

والجهاد بالقلب مرتبة الصلحاء الذين اعتزلوا الناس ولم يجدوا للنصيحة آذاناً صاغية، وهذه المظاهر المتحدَّثُ عنها في الحديث النبوي تُبرز لنا مظهراً من مظاهر الغثائية، عندما تشمل الطاغوتية الفكرية كلا البِنْيَتَينِ: الفوقيةِ كالعلماء والولاة والتحتيةِ كالعمال والرعية بكافة طبقاتهم ووظائفهم .

وهذه المرحلة المظلمة مرحلة يجب فيها الجهاد بما استطاع المؤمن، إذ ليس وراء ذلك من الإيمان شيء .

والأحاديث النبوية كلها متضافرة في تصوير هذه المظاهر، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: « يأتي على الناسِ زمانٌ لا يُتَّبَعُ فيه العالِمُ، ولا يُسْتَحْيَى فيه من الحليم، ولا يُوَقَّرُ فيه الكبير، ولا يُرْحَمُ فيه الصغير، يَقْتُلُ بعضهم بعضاً على الدنيا، قلوبُهم قلوبُ الأعاجم وأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ العرب، لا يَعْرِفُون معروفاً ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَراً، يمشي الصالحُ فيهم متخفياً، أولئكَ شِرَارُ خَلْقِ اللهِ، لا يَنْظُرُ اللهُ إليهم يَومَ القيامة »[(١)] .

ومظاهر السلوك المشار إليه في هذا الحديث واضحةٌ في حياة المسلمين اليوم، فالعالِمُ لا يُقتدى به بل يُعتبر عنصراً ثقيلاً على الناس في مجالسهم، ولا يُستحيا من الحليم، بل ترى صغار الأولاد يجلسون في مجالس الكبار ويسبقون إلى الحديث والكلام دون احترام ولا توقير لأحد .

---

(١) رواه الديلمي عن علي، وأورده البرزنجي في « الإشاعة » ص٧٦ .

والكبار في السن هم أيضاً لا يرحمون صغيراً ولا يوجهونه ولا يعلمونه ما يجب عليه، كلٌّ همٍّ هؤلاء جميعاً طلب الدنيا والاقتتال من أجلها، سواء كان الاقتتال بالسلاح كما هو واقع في صراع الحدود بين بلدان المسلمين، أو إقامة الأحزاب الوطنية التي تسارع عند انتصارها إلى التطاحن على كراسي الحكم والسيطرة على النفوذ، أو مفهوم الاقتتال البارد من استخدام أسلحة الإعلام والأقلام، قلوبهم قلوب الأعاجم من حيث قسوتها وشدتها، على شبهها ومثلها، أو هو من حيث محبتهم لما عليه الأعاجم من وسائل الحياة الحضارية وأسبابها، حتى إن علاقتهم بالغرب والشرق أقوى وأقرب من علاقتهم بالمسلم الذين يعايشهم في الوطن الواحد، ومع ذلك فألسنتهم من حيث اللهجة والانتماء هي ألسنة العرب، وبها يدعون إلى سياسة القومية العربية والموقف العربي والانتماء إلى أمة العرب، ويضيقون رؤية الإسلام الشاملة، ولا فرق بين عجمي ولا عربي ولا أبيض ولا أسود إلا بتقوى الله .

هؤلاء يكونون عند هذا الحال القومي العربي المجرد لا يعرفون معروفاً مما أمر الله به ودعا إليه نبيه، ولا ينكرون منكراً أنكره الله ورسوله، بل يكون المعروف عندهم ما عرفوه وعاشوا به ولأجله ولو كانت الشبهة والتعامل بالربا، والمنكر ما أنكرته عقولهم وقلوبهم وخافوا منه ولو كان حب النبي وآل بيته وأولياء الله الصالحين.

هؤلاء قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يخرج في آخر الزمان رجالٌ يَخْتِلُون الدنيا بالدِّين، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى من العَسَل،

وقلوبُهم قلوبُ الذئاب، يقول اللهُ عزّ وجلّ: أَبِي يَغْتَرُّون؟ أم عليَّ يَجْتَرِؤُون؟ فبي حَلَفْتُ لأَبْعَثَنَّ على أولئك مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الحَلِيمَ مِنْهُمْ حيراناً »[١] .

وكفى بما تعيشُه أمَّةُ الإسلامِ اليومَ في أمرِ دينها ودنياها فتنةً، فعدوُّها قد سَلَبَ منها كلَّ شيءٍ، ومَزَّقَ الكيان وتَغَلْغَلَ بوسائِطِه الحضاريةِ إلى مخادع البيوت وحياة الفرد الخاصة، وصارَ الجيلُ المفتونُ يَشْهَدُ الانجذاباتِ الماديةَ التي تَجُرُّهُ إلى عبادة الدنيا جَرّاً بين لحظةٍ وأخرى، عبر الوسائط الإعلامية واللافتات الدعائية والأبواق الكلامية والأسواق المزيّنة بما لا يدع مجالاً كافياً لغير ما يرى ويسمع ويعيش ويطمع ويطمح ويتمنى .

هذا هو جيلُ عبادةِ العجل الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: « لِكُلِّ أُمَّةٍ عِجْلٌ، وعِجْلُ أُمَّتي الدينار والدرهم»[٢]، وفيه أيضاً يقول: « سيأتي على الناس زمانٌ دِينارٌ عِنْدَهُمْ خيرٌ من صلاتِهم »، وحديث « يأتي على الناس زمانٌ هَمُّهُمْ بُطُونُهُمْ وشَرَفُهُمْ مَتَاعُهُمْ وقِبْلَتُهُمْ نِسَاؤُهُمْ ودِينُهُمْ دَرَاهِمُهُمْ ودَنانِيرُهُم، أولئك شِرارُ الخَلْقِ لا خَلاقَ لهم عند الله »[٣] .

---

(١) عن أبي هريرة، ذكره « كنــز العمال » برقم (٣٨٤٤٣) (١٤: ٢١٤)، ورواه الترمذي برقم (٢٤٠٤) وأحمد .

(٢) ذكره « كنــز العمال » برقم (٦٢٥٩)، وفي رواية بزيادة « عِجْلٌ يَعْبُدُونَه»، انظر شرح « الإحياء » للزبيدي (٩: ٢٨٩) .

(٣) رواه السُّلَمي عن علي كرم الله وجهه .

ومن هذه الأحاديث وأمثالها يتبين حالُ كثير من المسلمين في زماننا هذا من بلدان شتى، حيث لا هَمَّ لهم إلا طلب الدنيا على غير ورع ولا تَثَبُّتٍ في أمر الحلال والحرام، بل كَبُرَ أمر الدنيا في النفوس حتى صارت الغربة في سبيلها مطلباً وضرورةً، وسبباً في إشباع رغبات النساء وملاحقة تكاليف العادات السيئة التي أثقلت كواهل الرجال، حتى صار المرء يُعَيَّر في أسرته بضيق ذات اليد والفقر مما دفع الكثير من الناس إلى الأسفار، والوقوع في مجاراة الفجار، والتعرض للإهانة والأذى من بعض الملاك والتجار، وقد أشار صلى الله عليه وسلم إلى هذه الظاهرة الخطيرة في قوله: « يأتي على الناسِ زمانٌ لا تُنال المعيشةُ إلا بمعصية الله، فإذا كان كذلك حَلَّتِ الغُربة، يكون في ذلك الزمان هلاكُ الرجلِ على يد أبويهِ إن كان له أبوان، وإلا فعلى يدِ زوجتِه، وإلا على يد الأقارب والجيران، يُعَيِّرُونَهُ بضِيقِ المعيشة، ويُكَلِّفُونَهُ ما لا يُطِيقُ حتّى يُورِدَ نَفْسَهُ الموارِدَ التي يَهْلَكُ فيها »(١) .

هذه الصورةُ القاتمةُ التي تنحدر إليها الأمة في آخر الزمان سببُها نقضُ عرى الإسلام وهيمنة الغثائية بكل صورها وأشكالها على حياة المسلمين، هذه الغثائية التي تهيء جيل الرسالة المحمدية للتفكك والضياع، وتَدْخُلُ عليهم من حيث الرغبات والشهوات ومن حيث إثارة الغرائز، وتقوم مؤسسات الفتنة المتمثلة بالبنية الفوقية بحماية الوسائط الفكرية والإعلامية المؤدية غرض الإثارة كدور

(١) رواه أبو نعيم والبيهقي، وذكره صاحب « الإشاعة » ص٧٦.

السينما والتلفاز وموقع تسويق علب الفيديو والمسرح والفنون المتنوعة كالغناء والرقص والرسم وما شاكلها، وتوسيع دائرة الحيرة والإثارة بانتشار المجلات والجرائد ذات الاهتمامات الجنسية والنسوية ومؤلفات الجنس والقصص الخليعة، وتشجيع ارتياد الأندية والملاعب والتعليم المختلط والأدب الرخيص، وهذه الوسائط المتفاوتة في تأثيرها من بلاد إلى أخرى هي السلاح الهدام الناخر في صلب المجتمع الإسلامي من داخله، والوسيلة الناجحة في غزو البيوت المحافظة ودغدغة العواطف الجامدة المتأثرة بالمفاهيم الدينية.. خطوة خطوة ومرحلة مرحلة، وحتى تلك المجتمعات الإسلامية الراغبة في انتهاج الشريعة الإسلامية مسلكاً لها وقانوناً، لا يُسْعِفُها هذا الادعاء أمام المد الحضاري والسياسات الاستشراقية المتخلخلة في كافة مظاهر الحياة اليومية للأسرة والجماعة .

ومن هذا المكمن الخطير في حياة الأمة يتبين المظهر الطاغوتي المادي الجاثم على القلوب والعقول، والمدخل المشؤوم الذي دخلت به قوى الشر والإفساد ووجهت به الجماعات والأفراد، واشتغل به الكبار والصغار والولاة والرعايا، إذ أخبر عليه الصلاة والسلام عن هذا الطغيان المادي بقوله: « إذا رأيتَ الحُفاةَ العُراةَ العَالَةَ رِعاءَ الشّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ فانْتَظِرِ السّاعَةَ »، والبنيان الحضاري اليوم يكاد أن يخفي معالم الماضي بكافة ألوانه، حتى في أكثر مواطن الإسلام قداسة وشرفاً، وكثيرٌ من هذا التطاول العمراني

إنما هو بأيدي البداوة والأعراب الذين دخلوا المدنية من أوسع أبوابها في كل مجتمع وبلاد.

وكان لهؤلاء الأعراب والبادية ومن نحى نحوهم من جهلة الواقع حظٌّ وافرٌ من بداية عهد الغثائية، وذلك بدخولهم في مدارس الحكومات وتخرج الكثير منهم من أبوابها، وهي التي هَيَّأَتْهُمْ بعد ذلك لارتقاء المناصب والمطالبة بها والموت من أجلها .

والأحاديث الشريفة تُبرز صورةَ التَّحَوُّلِ في الدول والسياسة، وأن ذلك من مظاهر قرب الساعة، كقوله عليه الصلاة والسلام: « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى يَظْهَرَ الفُحْشُ والبُخْلُ ويُخَوَّنَ الأَمِينُ ويُؤْتَمَنَ الخَائِنُ وتَهْلَكَ الوُعُولُ وتَظْهَرَ التُّحُوت »، قيل: وما الوعول وما التحوت ؟ قال: «الوعولُ وجوهُ الناسِ والتُّحوتُ الذين كانوا تحت أقدامِهم» [1] .

وقال عليه الصلاة والسلام: « من أشراطِ الساعةِ أن يَمْلِكَ مَن ليس أهلاً أن يَمْلِكَ، ويُرْفَعَ الوضيعُ ويُتَّضَعَ الرفيعُ»[2] .

وعن عبد الله بن عمرو قال: « إن من أشراطِ الساعةِ أن يُوضَعَ الأخيارُ ويُشَرَّفَ الأشرارُ، ويسودَ كلَّ قومٍ مُنافِقُوهم » [3] .

---

(١) رواه الحاكم عن أبي هريرة، « كنــز العمال » (١٤: برقم ٣٨٥٦٦).

(٢) رواه نعيم بن حماد في « الفتن »، « كنــز العمال » (١٤: برقم ٣٨٥٥٩) .

(٣) رواه نعيم، « كنــز العمال » (١٤: ٥٦٣) .

وكانت هذه العلامات المذكورة في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم هي أول عوامل ظهور الغثائية في الأمة الإسلامية، وهي دعائم النقض للعرى في عديد من البلاد .

وقد شاهدت بلاد اليمن من هذا المظهر الغثائي ألواناً غريبة كان أخطرها وأشدها فساداً وإفساداً مظهر النظام الشيوعي، فقد ساد فيه التحوت بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبلغ بالأراذل أن أهانوا أشرف الناس وعلماءهم وسَحَلُوا منهم من سَحَلُوا وقتلوا من قتلوا، حقداً وبغضاً وكرهاً للإسلام ومظاهره، وهذا أيضاً من الأمور التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم أنها تقع في هذه الأمة، فقد حكى البرزنجي في ((الإشاعة)) عن علي رضي الله عنه قال: ((يأتي على الناس زمانٌ يُقْتَلُ فيه العلماءُ كما تُقْتَلُ الكلابُ، فيا ليتَ العلماءَ في ذلك الزمان تَحَامَقُوا)) .

وكان دافعُ هؤلاء الأدعياء في التخلص من مظاهر التخلف -كما يعتقدون- بناءَ الحياة السعيدة لأنفسهم وأشباههم، وقد ذكر البرزنجي في ((الإشاعة)) حديثاً ((لا تقومُ الساعة حتى يَكُونَ أسعدُ الناسِ بالدنيا لُكَعُ ابنُ لُكَعُ))[1]، قال في ((الإشاعة)) : اللكعُ العبدُ أو الأحمقُ أو اللئيمُ، أي: حتى يكون اللئام والحمقاء والعبيد رؤساء الناس .

ويظن الجهلاء أن الإسلام لا يضع اعتباراً للفقراء والعبيد والبسطاء، وإنما هو يحمي الأغنياء وأصحاب السيادة والمظاهر

---

(١) ((الإشاعة)) ص٧٦، رواه الديلمي وابن عساكر.

الاجتماعية، وهو ظنٌّ باطل، لأن للإسلام ضوابط يقيد بها الحر والعبد والرفيع والوضيع ويجعلهم أمام أدب الإسلام سواء بسواء، ولكن من داخل حظيرة الإسلام، أما ما يكون في آخر الزمان من مظاهر الفساد فإنما ينتج عن ترك هذه الفئات أدب الشريعة والاتجاه إلى أفكار الأعداء وتبنيها والدفاع عنها، وقتل المسلمين والعلماء تقرباً لأساطينها، وقد قامت دولة الماركسية في جنوب الوطن بطمس الكثير من معالم الإسلام وإحلال معالم الشيوعية بديلاً عنها، وخاصة في التربية والتعليم، والنقابات، والعسكرية، وبعض القوانين الاجتماعية والاقتصادية، حتى سُلبتْ أموالُ الناس وصودرتْ أملاكُهم ووُجّهت للأبرياء تُهَمَ البُرْجُوازِيّةِ والإقطاعية وما شاكلها من تهم السياسة الشيوعية، وعمقت مؤسسات هذا الفكر الأحمر في الوطن المغلوب على أمره سياسة الصراع الطبقي الذي أهلك الحرث والنسل، وجعل الأخ يقتل أخاه وجاره والابن يتخلى عن أبيه، وكل ذلك تحقيقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: « لا تقومُ الساعةُ حَتّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ أخاه لا يَدْرِي فِيمَ قَتَلَه، وإذا اقتربَ الزمانُ لأَنْ يُرَبِّيَ الرَّجُلُ جَرْواً -أي: ولدَ الكلب- خيرٌ لَهُ مِن أَنْ يُرَبِّيَ وَلَداً له » .

وقد شهدتْ بلادنا من تحقيق هذا القول النبوي ما لا يحتاج إلى تبيان، فقد استبدل الأبناءُ ولاءَ الأب والأم بولاء الحزب والتنظيم، حتى كان بعض الآباء لا يستطيعون التحكم في سلوك بناتهم فضلاً عن أبنائهم، وسُجِنَ العديدُ من الآباء لِمَنْعِهِمْ بناتِهم وأبناءَهم من

المشاركة في المبادرات والمسيرات والرحلات واجتماعات المنظمات، بل صار بعض الأبناء عينا للنظام على والده وأقاربه .

وأما القتل على غير سبب فقد اشتعلت في عواصم البلاد اليمنية حروبٌ حزبيةٌ طاحنة، كان الأخ يقتل أخاه، بل صار أحدهم يقتل من أمامه على غير تمييز، ومنهم من قتل أباه وولده، وكلهم لا يدرون عن أسباب هذا القتل سوى تنفيذ الأوامر، ومن لم ينفذ أمر قائده قتل بسلاحه، وخلال صراع هذه الفئات كانت كل فئة تجمع ما استطاعت من موالي الفئة الأخرى ثم تحصدهم حصداً بالرصاص وتدفنهم أحياء أو مجروحين.

وقد أشارت الأحاديث إلى كثرة الهرج في آخر الزمان، والهرج هو القتل، وإلى قطع الأرحام وأخذ المال بغير حقه كما رواه ابن أبي شيبة « لا تَقُومُ الساعةُ حَتّى تُقَطَّعَ الأرحامُ ويُؤْخَذَ المالُ بغَيرِ حَقِّهِ وتُسْفَكَ الدِّماءُ ويَشْتَكِي ذوالقرابةِ مِن قَرَابَتِهِ لا يَعُودُ عليه بشيءٍ، ويَطُوفُ السّائِلُ لا يُوضَعُ في يَدِهِ شَيْءٌ » .

ومن العلامات « لا تَقومُ الساعةُ حتّى يجْعَلَ كتابُ اللهِ عاراً، ويكونَ الإسلامُ غريباً، وحَتّى تَبْدُو الشَّحْناءُ بين الناس، وحَتّى يُقْبَضَ العِلْمُ، ويَهْرَمَ الزمانُ، ويُنْقَصَ عُمْرُ البَشَر، وتُنْقَصَ السِّنُون والثمراتُ، ويُؤَمَّنَ التُّهماءُ ويُتَّهَمَ الأمناءُ، ويُصَدَّقَ الكاذبُ، ويُكَذَّبَ الصادقُ، ويَكْثُرَ الهرجُ وهو القتل، وحتّى تُبْنَى الغُرَفُ - أي: القصورُ - فتطال، وحتى تَحْزَنَ ذواتُ الأولادِ - لعقوقِ أولادهنّ - وتَفْرَحَ العَواقِر، ويَظْهَرَ البَغْيُ والحَسَدُ والشُّحُّ، ويَهْلَكَ الناسُ،

ويكثَرَ الكذبُ، ويَقِلَّ الصِّدْقُ، وحتى تختلفَ الأمور بين الناس، ويُتَّبَعَ الهوى، ويُقْضَى بالظن، ويَكْثُرَ المَطَرُ ويَقِلَّ الثَّمَرُ، ويَغِيضَ العِلْمُ غَيْضاً، ويَفِيضَ الجهلُ فيضاً – أي: يكثر » .

ومن العلامات المجاهرة بالزنا والتفاخر به، فعن عبد الله بن عمرو قال: قال صلى الله عليه وسلم: « لا تَقُومُ الساعةُ حتى يتهارجون في الطُّرُقِ تَهَارُجَ الحُمْرِ، فيأتيهم إبليسُ فيَصْرِفُهُمْ إلى عبادةِ الأوثان » رواه ابن أبي شيبة.

وهذه العلامات تكاد تكون منطبقةً على واقع كثير من بلاد المسلمين اليوم، وقد صار كتاب الله عاراً قراءةً وحملاً واعتقاداً كما هو حاصل إبان السيادة الشيوعية في جنوب الوطن، خصوصاً في المدارس والكليات وفي المواقع الحكومية والرسمية، واعتبر حكّامُ النِّظامِ القرآنَ تراثاً تجاوزتْه المرحلة ولم يعد يفي بحاجة الحياة، ومن ثم غاضَ علم الشريعة والدين واهتمتِ المدارسُ بالعلوم الأخرى حتى كانتْ مادةُ التربية الدينية المقررة في المدارس لا تجد إقبالاً من التلاميذ، وفي آخر مراحل البلاء انعدم المدرس لهذه المادة، وصار المتظاهر بالإسلام مكروهاً ومتهماً، وساد الجهلُ وفاض فيضاً في المدن والقرى حتى صار المرءُ لا يجد من يُفتيه في مسائل الميراث والنكاح، وعُزِلَ العلماءُ التقليديون عن مواقع التأثير، وجِيء بشبابٍ درسوا في مدارس الفقه الاشتراكي يفتون الناس بما في

القوانين الاجتماعية[1]، وضَعُفَ فهمُ البدواة في الدين حتى صاروا يبحثون عن المتعلم ليصلي بهم صلاةَ الجنازة، ودُفِنَ بعضُ الموتى في بعض القرى دون صلاة .

وأشار الحديث أيضاً إلى ظهور الشحناء بين الناس، فقد صار هذا الأمر ظاهرة معلومة في بلاد المسلمين، لأن القوانين الوضعية هي المسبب لمثل هذا، فالأنظمة العربية وغيرها مَيَّزَتْ في قوانينها بين المسلم والمسلم حتى صار المسلم في بلادٍ أخرى يسمى أجنبياً، بينما يسمى النصراني والوثني صديقاً، و(الأجنبية) التي سببت الشحناء وخلقت الفوارق الاجتماعية والامتيازات التجارية إنما جاءت بسبب الدنيا وظهور المعادن والبترول والأسواق التجارية الواسعة المرتبطة بما تسمى بالبلدان الصديقة، وتعمقت هذه الشحناء تعمقاً خطيراً في حياة المسلمين، وصار مقياس المعاملة ليس الإسلام ولا ما جاء فيه من آداب وأخلاق، وإنما مقياس التعامل هو العلاقات الشخصية والحكومية والمصالح الذاتية، وقد برزت هذه الوسائط الخبيثة خلال صراع البلدان العربية والإسلامية في حرب الخليج بروزاً أظهر الشحناء الدفينة على حقيقتها، وترى علماء المؤسسات يدافعون عن هذه المواقف ويختلقون الأدلة والبراهين بما يساعد على استمرارية هذه المواقف الخطيرة ويزيدها عمقاً، وإلى مثل هؤلاء تشير الأحاديث النبوية .

---

(١) لأن هؤلاء يعيَّنُون حكاماً وقُضاةً في الإدارات الرسمية، وعلى أيديهم يجري النكاح وغيره من مسائل المعاملات .

ومنها: ((لا تَقُومُ الساعةُ حتى يكونَ الولدُ غيضاً، والشتاء قيضاً، وحتى يُجْهَرَ بالفحشاءِ وتُزْوَى الأرضُ زَوْياً وتَقُومَ الخطباءُ بالكذب، فيجعلون حَقّي في شرار أمتي، فمَن صَدَّقَهُمْ بذلك ورَضِيَ به لم يَرُحْ رائِحَةَ الجَنَّة))[1]. وقولُه: ((حتى يُجْهَرَ بالفحشاء)) إشارة إلى ما قد ظهر ويظهر على شاشة السينما والتلفاز والفيديو .

وأما زوي الأرض فهو تقاربها وانطوائها باستخدام الوسائل الحضارية كالسيارة والطائرة والبواخر وغيرها، وأما خطباء الكذب فحدث عنهم ولا حرج، ولم تعد منابرهم محصورة في المساجد وإنما قد انتقلت إلى الكليات والجامعات والإذاعة والتلفاز والمسرح والندوات واللقاءات والمقابلات، وهؤلاء الخطباء في كافة مظاهر نشاطهم لا يقدرون أن يتحدثوا خارج دائرة التمجيد للأنظمة والإشادة بها، ومثل هؤلاء أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم بقوله: ((لا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى يَخْرُجَ قَوْمٌ يَأْكُلُونَ بأَلْسِنَتِهِمْ كما تَأْكُلُ البَقَرُ بأَلْسِنَتِها))[2] .

قال في ((الإشاعة)) : معناه يمدحون الناس ويظهرون محبتهم نفاقاً ويطرونهم ويمدحونهم حتى يتوصلون إلى أخذ الأموال منهم.اهـ . وهذا مُشاهدٌ اليومَ في شُعَراء الأنظمة وخطباء السياسة

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني وابن عساكر، وذكره البرزنجي في ((الإشاعة)) ص٣٤ .

(٢) رواه أحمد والخرائطي وغيرهما عن سعد ابن أبي وقاص .

والأحزاب والحكومات، وفي هذا الواقع الغثائي تظهر علاماتٌ أخرى أشار إليها الحديث الذي رواه الطبراني « أَنْ يَكْثُرَ الشُّرَطُ والهَمّازُونَ واللمّازُونَ وأَنْ يَكْثُرَ أولادُ الزِّنا » .

وهؤلاء كلُّهم في الغالب يكونون من أتباع الأنظمة ومخابراتها وعيونها، وأما كثرة أولاد الزنا، فلفساد العقود والأنكحة، ولرجوع الرجل إلى امرأته بعد طلاقها عدة مرات، ولوقوع العديد من جيل هذا الزمان في مفسدات النكاح كترك الصلاة جحوداً والكفر بالله تعالى إلحاداً وغير ذلك .

ومنها « إذا ظَهَرَتِ القَيْنَاتُ والمَعازِفُ، وشُرِبَتِ الخُمُورُ، ولَعَنَ آخرُ هذِه الأُمَّةِ أَوَّلَهَا »[١]، والقَيْنَاتُ هُنّ المُغَنِّياتُ والمطربات والراقصات، وظهورهن أن يصبحن نجوم الشاشة وعلية المجتمع، وأخبارهن وصورهن تملأ الصحف والمجلات والجرائد، وأشرطتهن المتنوعة في بيوت المسلمين والمسلمات، والأبناء والبنات يهتمون ويتعلقون بهذه العلب وبأخبار هؤلاء القينات وأحوالهن أكثر من اهتمامهم بأخبار وأحوال الأمة الإسلامية وما حل بها من اهتمامهم بالواجب واللازم .

ومع ظهور القينات بهذه الصورة في الحياة الاجتماعية لا بد أن ينصرف الجل الأكبر للاهتمام بالفن وشراء المعازف والتدرب عليها، وها هي قد صارت في بلاد المسلمين فنّاً يعتمد له مخصص ومدرس ومريدون، وصارت كلمة الفنان والمطرب نافذة في بيوت قادة

---

(١) رواه الترمذي .

المجتمع أكثر من كلمة التقي النقي الصالح، فضلاً عن العالم المؤمن .

وفي هذه المجتمعات الغثائية تأثرت الناشئة من بنات وأبناء المسلمين بحياة وعادات وأساليب كثير من نجوم السينما والمسرح والتلفاز، وغاب عن علمهم جميعاً تحذير الإسلام من إثم الكاسيات العاريات اللاتي يظهرن في آخر الزمان.

قال عليه الصلاة والسلام: ((يَكُونُ في آخِرِ الزَّمانِ رِجَالٌ يَرْكَبُونَ المَيَاثِرَ حَتّى يَأْتُونَ أَبْوابَ المَسَاجِدِ، نِسَاؤُهُمْ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ على رُؤُوسِهِنَّ مِثْلُ أَسْنِمَةِ البُخْتِ العِجاف، الْعَنُوهُنَّ فإِنَّهُنَّ مَلْعُوناتٌ))، قال ابن عمر: وقلتُ لأبي: وما المَيَاثِرُ ؟ قال: سُرُوجٌ عِظَامٌ [(١)] .

والنساء الكاسيات العاريات هنّ اللاتي يلبسن الملابس الضيقة الحاكية من إحداهن أجزاء جسمها دون خجل ولا حياء، وتراهن اليوم في كثير من بلاد المسلمين يباشرنَ أعمالاً متنوعة في الإدارات الحكومية وبعض المؤسسات الدينية ويزاحمنَ الشباب في مراحل الدراسة الثانوية والجامعية وفي السينما والملاهي والنوادي وشواطىء البحار، ومنهن بناتُ رجالٍ أولي مكانة في العلم والدعوة إلى الله والتربية والتعليم الحديث، وقد وصلن إلى هذا المستوى من التعري بسبب التأثر بالغرب والشرق ومجالسة الأجانب وقراءة مجلات الموضات المخزية والسفر إلى الخارج، وكل هذا يشير إلى سوء البواطن وفساد الأخلاق الإسلامية لدى البنت المسلمة والرجل،

---

(١) رواه أحمد والحاكم عن ابن عمرو .

وغربة الجميع عن أدب الإسلام، حتى صارت الفتاة المنتسبة للإسلام مشغولة كل الانشغال بمسألة المساواة بين الجنسين والمطالبة بحرية المرأة، باعتبارها نصف المجتمع كما يقولون، وفي الحقيقة إن مطالبتها بهذه الحرية الرعناء إنما هي « نَسْفُ المجتمع »، قال صلى الله عليه وسلم : « صِنْفَانِ مِن أَهْلِ النّارِ لم أَرَهُمْ: قَوْمٌ مَعْهُمْ سِيَاطٌ كأَذنابِ البَقَرِ يَضْرِبُون بها النّاس، ونِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُؤُوسُهُنَّ مِثْلُ أَسْنِمَةِ البَخْتِ المَائِلَة، لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ ولا يَجْدُونَ رِيحَها، وإِنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كذا وكذا » .

إِنّ مثل هذا القول النبوي الواضح غير محتاج إلى مزيد تبيان، وعلى نساء وبنات المسلمين اللاتي خدعهنّ الأعداء أن يتَّقِينَ اللهَ ويرحمن أنفسهن من هذا الوعيد الشديد.

لقد كانَ في جنوبِ الوطنِ دَعَواتٌ وصَرَخَاتٌ لِتَحْرِيرُ المرأةِ بَدَأَتْ في عَهْدِ الاستعمارِ، ثُمّ استشرتْ وتحولتْ وتَحَوَّلَتْ إلى ثورةٍ عارمةٍ على عهدِ الاستقلال، وكان دُعاةُ الشُّيُوعِيَّةِ يُضَيِّقُونَ الخناق على المحتجبات في كافة مواقع العمل والتعليم والمؤسسات الخدماتية، وكانوا يُلزمون الطالبات بالسفور وكشف الرؤوس أو الطرد من المدرسة .

وهذا الإطلاق الفاسد للكاسيات العاريات ليس محصوراً في بلاد بعينها، ففي مصر والشام والعراق والمغرب وغيرها من بلاد الإسلام انتشرت هذه الظاهرة المشينة، لأثر الحضارة الغربية فيهم، ولبعد

المسلمين عن الدين وعن تخويف الأحاديث والقوارع الأخروية، إضافة إلى أن وسائل النقض والقبض الحكومية هي التي هيأت ظروف الغثائية في سلوك المرأة ودفعتها إلى ما سمَّته بالتحرر من الأركان المظلمة، ولأنَّ غالب من يدعو إلى هذه المظاهر والظواهر ينطبق عليهم قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: ((تَكُونُ أُمَرَاءُ فَسَقَةٌ ووُزَرَاءُ فَجَرَةٌ وأُمَنَاءُ خَوَنَةٌ يُضَيِّعُونَ الصَّلاةَ ويَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ، فإذا أَدْرَكْتُمُوهُمْ فصَلُّوا صَلاتَكُمْ لِوَقْتِها))[1] .

ويقول أيضاً: ((يَكُونُ المؤمنُ فِيهِمْ أَذَلَّ مِنَ الأَمَةِ -أي الجارية المملوكة- يَذُوبُ قلبُه فِيَّ كما يذوبُ الملح في الماء مما يرى من المنكر فلا يستطيعُ تغييره، ويكتفي الرجالُ بالرجالِ والنساءُ بالنساءِ، ويُغَارُ على الغلمان كما يُغارُ على الجارية البكر)) .

وكل هذه الظواهر صارت شائعةً وللأسف في كثير من عواصم وبلاد المسلمين، وزاد عليها ما ورد في حديث ((يَكُونُ أُمَراءُ جَوَرَةٌ ووُزَراءُ فَسَقَةٌ وأُمَناءُ خَوَنَةٌ وإِمارَةُ النِّساءِ ومُشَاوَرَةُ الإِماءِ وصُعُودُ الصبيان المنابر، عندها يليهم -أي: يتولى عليهم - أقوامٌ إِنْ تَكَلَّمُوا قَتَلُوهُمْ، وإِنْ سَكَتُوا استَباحُوهُمْ، ويَسْتَأْثِرُونَ بغَيِّهِمْ، ويَطَؤُونَ حَرِيمَهُم، ويجُار في حُكْمِهِم، ويليهم أقوامٌ جُثَثُهُمْ جُثَثُ الناس وقلوبُهم قُلُوبُ الشياطين، لا يُوَقِّرُونَ كبيراً ولا يَرْحَمُونَ صَغِيراً، عندها تُزَخْرَفُ المساجد كما تُزَخْرَفُ الكَنَائِسُ والبِيَعُ، وتُحَلَّى

(١) من حديث سلمان، رواه الحاكم وأحمد، وذكره صاحب ((الإشاعة)) ص٧٨ .

المَصَاحِفُ، ويُطِيلُونَ المَنَائِرَ ويَكْثُرُ العُقُوقُ، قُلُوبُهُمْ مُتَبَاغِضَةٌ وأَهْواؤُهُمْ جَمَّةٌ وأَلْسِنَتُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ » [1].

ومثله ما ورد في حديث حذيفة بن اليمان، ونقتصر منه على أهم الظواهر المشاهدة اليوم: « إذا رَأَيْتُمُ الناسَ أَمَاتُوا الصّلاةَ وأَضَاعُوا الأمانةَ وأَكَلُوا الرِّبا واسْتَحَلُّوا الكَذِبَ واسْتَخَفُّوا بالدِّماءِ واسْتَعْلَوْا بالبناءِ وبَاعُوا الدِّينَ بالدُّنيا وتَقَطَّعَتِ الأَرْحَامُ، وظَهَرَ الجَوْرُ وكَثُرَ الطَّلاقُ ومَوْتُ الفَجْأَةِ، واؤْتُمِنَ الخَائِنُ وخُوِّنَ الأَمِينُ وصُدِّقَ الكَاذِبُ وكُذِّبَ الصّادِقُ وكَثُرَ القَذْفُ، وكان المَطَرُ قَيْضاً والوَلَدُ غَيْضاً وفاضَ اللئامُ فَيْضاً، وكانَ الأُمَراءُ فَجَرَةً والوُزَرَاءُ كَذَبَةً والأمناءُ خَوَنَةً والعُرَفاءُ ظَلَمَةً والقُرّاءُ فَسَقَةً، إذا لَبِسُوا مُسُوكَ الضَّأْنِ، قُلُوبُهُمْ أَنْتَنُ مِنَ الجِيفَةِ وأَمَرُّ مِنَ الصَّبِرِ، يُغَشِّيهِمُ اللهُ فِتْنَةً يَتَهاوَكُون فيها تَهَاوُكَ اليَهُودِ الظَّلَمَة، وتَظْهَرُ الصَّفْرَاءُ -يعني الدنانيرُ- وتُطْلَبُ البَيْضَاءُ -يعني الفِضَّةُ- وتَكْثُرُ الخُطَباءُ، ويَقِلُّ الأَمْرُ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ، وحُلِّيَتِ المَصَاحِفُ وصُوِّرَتِ المساجدُ وطُوِّلَتِ المَنابِرُ وخُرِّبَتِ القُلُوبُ وشُرِبَتِ الخُمُورُ وعُطِّلَتِ الحُدُودُ بينهم، ووَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّتَها، وتَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ قد صاروا مُلُوكاً، وشاركتِ المرأةُ زَوْجَها في التِّجَارَةِ، وتَشَبَّهَ الرجالُ بالنساء والنساءُ بالرجالِ، وحُلِفَ بغَيرِ اللهِ،وشَهِدَ المَرْءُ مِن غَيرِ أَنْ يَسْتَشْهِدَ، وسُلِّمَ للمَعْرِفَة، وتُفُقِّهَ لِغَيرِ دِينِ اللهِ، وطُلِبَتِ الدُّنيا بعَمَلِ الآخرة، واتُّخِذَ المَغْنَمُ دُوَلاً، والأمانةُ مَغْنَماً، والزكاةُ مغرماً، وكان زَعِيمُ

(١) المصدر السابق ص٨٠ .

القَوْمِ أَرْذَلَهُمْ، وعَقَّ الرَّجُلُ أَباه وجَفَا أُمَّهُ وبَرَّ صَدِيقَهُ وأَطَاعَ امْرَأَتَهُ، وعَلَتْ أَصْواتُ الفَسَقَةِ في المَسَاجِدِ، واتُّخِذَتِ القَيْنَاتُ والمَعَازِفُ، وشُرِبَتِ الخُمُورُ في الطُّرُق، واتُّخِذَ الظُّلْمُ فَخْراً، وبِيعَ الحُكْمُ، وكَثُرَتِ الشُّرَطُ واتُّخِذَ القُرآنُ مَزَامِيرَ ››[1] .

ومن علامات الساعةِ أَنْ يَجِدَ المُوسِرُ مَشَقَّةً في إِخْراجُ الزَّكاةِ الوَاجِبَةِ عَلَيهِ، ممّا أُوجِدَ الاضْطِرابِ الاقتصادي في حياة المسلمين زيادةً على ما هم عليه من فساد المال وكثرة الشبهات والحرام وندرة الحلال، وبهذا ينطق حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: ‹‹ يُوشِكُ الرَّجُلُ يَشُقُّ عليه أَنْ يُؤَدِّيَ زَكَاةَ مَالِهِ ›› [2] .

ومن العلاماتِ اجتماعُ العديدِ من فِئامِ الناس، ولا يكون بينهم مُهابٌ في ذات الله، كما هو اليوم مشاهدٌ في عشراتِ الطلاب والشباب والفتيات وموظفي الإدارات والمؤسسات، يجتمعون صباحاً وظهراً ولا ترى فيهم رجلاً يهابه الناس في ذات الله، وإنما الهيبة من حيث المستوى السياسي أو الوظيفي، قال عليه الصلاة والسلام: ‹‹إذا اجْتَمَعَ عِشْرُونَ رَجُلاً أو أَكْثَرَ أو أَقَلَّ فلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَن يُهَابُ في اللهِ فقَدْ حَضَرَ الأَمْرُ ›› [3] .

ومن العلامات أن يصلي العددُ من الناس الصلاة لا تُقبل منهم لغلبة الجهل وعدم إتمام أركانها وواجباتها، قال عليه الصلاة

---

(١) المصدر السابق ص٨٤ .

(٢) ‹‹ كنــز العمال ›› برقم (٣١٦٣٤) .

(٣) عن عبد الله بن بشر، رواه البيهقي، ‹‹ كنــز العمال ›› (١٤: ٥٦٥) .

والسلام: « مِنِ اقترابِ الساعةِ أَنْ يُصَلِّيَ خَمْسُون نَفْساً لا يُقْبَلُ لأَحِدِهِمْ صَلاةٌ »[1]، والمعنى أنهم لا يَأْتُونَ بشروطها وأركانها، وبذلك تكون باطلةً، ولا يقبل الله عملاً باطلاً.

---

(١) رواه أبو الشيخ عن ابن مسعود .

رفع الإيمان والأمانة

روى البخاري ومسلم في «صحيحهما» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم في أشراط الساعة «وذهابُ الأمانة، حتى يُقالَ للرَّجُلِ: (ما أَعْقَلَهُ وما أَظْرَفَهُ وما أَجْلَدَهُ) وما في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِن إيمانٍ» .

ورَوَى ابنُ وَضّاحٍ في «البدع» مختصراً عنه قال: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة حتى يُقال: في بني فلان رجل أمين، وحتى يُقال للرجل: (ما أَجْلَدَهُ وما أَظْرَفَهُ) وما في قلبه حَبَّةٌ من خردلٍ مِن إيمانٍ» .

من هذه الأحاديث الواضحة في بيانها يَبرز للمتأمل اليوم في سلوك المسلمين في رحلة الإيمان والأمانة، وكيف تَدَرَّجَ الناسُ جيلاً بعد جيلٍ في فقدان هذين المعادلين الهامّين، حتى بلغ الجُلُّ الأوسعُ إلى ما بلغوا إليه في الحياة العامة والخاصة، بحيث لا تجد اليوم امرءاً تجتمع فيه مقومات الإيمان والأمانة كما يجب وينبغي .

فالوظائف الرسمية في كثير من إدارات الحكومات تفتقر إلى الأمانة والإيمان، وغالب ما تقع فيه البلاد الإسلامية من عجزٍ وفقرٍ واضطربٍ في الخدمات والمؤسسات الاقتصادية يرجع سببه الأول إلى فقد الأمانة من هيكل العمل رئيساً ومرؤوساً، إضافة إلى ما قد

نــزعَ من مقومات الإيمان، وترى تلك المؤسسات القائمة في كثير من بلاد الإسلام بوظيفة الرعاية والأمن والتربية والتعليم والعدل هي الأساس في نحر وقتل العدالة وإثارة الشغب وتعطيل الأمن والمساهمة في فوضى الحياة .

وفي حياة الأوطان مجتمعة أو متفرقة نماذج مخزية تشير إلى انعدام حقيقة الإيمان بالله، وانفراط عرى الأمانة، بدءاً من رؤوس الحكم ورموز السلطان ونهاية بالأسرة والمنــزل .

ولسياسة الأنظمة العالمية في هذه الأوطان دور لا يستهان به في تعجيل السقوط إلى هاوية الخيانات وفقدان الأمانات، حيث وضعت هذه السياسات يدها على مقدرات الأمور وأسباب التأثير السياسي والأخلاقي والاقتصادي، فلم تَأْلُ جهداً من توظيف من لا خلاق له ولا إيمان ولا أمانة، نكايةً منها بالإسلام والمسلمين، وبذلك صار الخونةُ المُتَسَلِّطُون يمارسون أبشع الوسائل المهينة لأهل الإيمان والأمانة، ويقصونهم عن مواقع التربية والتعليم وعن مواطن التأثير الإعلامي، ومع تشوية سمعة المتمسكين بالدين والإيمان، وهذا هو السلوك الذي عينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان بمثل قوله: « يأتي على الناسِ زَمَانٌ المُؤْمِنُ فِيهِ أَذَلُّ مِنَ الأَمَةِ، أَكْيَسُهُمُ الّذي يَرُوغُ بدِينِهِ رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ » رواه نعيم ابن حماد في « الفتن » .

والواقع المريض ذاته يكون سبباً في إشاعة الخيانة وتوسيع رقعتها، لأن وسائط الأمانة والإيمان مهضومةٌ ومحاربةٌ بمحاربة

أهلها ورجالها، وإذا تحدث أحدٌ من ضحايا المجتمع المتردي في الخيانة مع جماعته ورفقته عن الأمانة، يتذكرون رجالاً يوصفون بها ولا يعرفونهم لأنهم ليسوا في دوائرهم ولا يدخلون مدخلهم، فيقال: « إِنّ في بني فلانٍ رجلٌ أَمِينٌ » .

وقد شاهدنا في محيط الوطن اليمني المغلوب على أمره من ينافس غيره على المسؤولية والسلطة والترشيحات الحزبية والانتمائية طلباً لتحمل مسؤولية أمانات الأمة وقيادتها في شؤون السياسة والاقتصاد والتربية والثقافة وغيرها، مع أن أهم شروط التحمل لهذه المسؤولية مفقود، وذاك عين التحقيق لقوله صلى الله عليه وسلم: « حتى يُقَالَ للرَّجُلِ: (ما أَجْلَدَهُ وما أَظْرَفَهُ) وما في قَلْبِهِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمانٍ » .

ومن غرائب هذا الجيل المفتون أن ترى هذه العقليات المتضافرة على خيانة الأمة وهي تعلم أو لا تعلم، تَجِدُّ في البحث عن رجل يتناسب لملء وظيفة شاغرة في الدولة وإدارتها السياسية والاجتماعية، فلا يجدون في ساحة الوطن أحداً يتلاءم إلا من داخل إطار الحزب أو التيار أو الفئات المتضافرة على مقاسمة المصالح، ويختارون من بين هذه الأنواع من يؤدي المهمة، وتكون المهمة في حقيقة الأمر خياناتٍ عديدةً لا تظهر على الساحة بوضوح إلا بعد أن يُستغنى عن ذلك الرمز ويرمى في مزبلةِ العامة، ويحل محله رمز آخر لا يختلف عن سابقه إلا بالاسم والمرتبة والثقل السياسي .

وأما في مجتمعات إسلامية أخرى فالحال لا يختلف إلا بالزمان والمكان ونوعية الأفراد ومبادئهم وتركيب ثقافتهم، وإلا فالأمانة والإيمان قد رحلا عن السلوك العام والمظاهر الرسمية، وفشا في الأمة بيع الدين بالدنيا، تحقيقاً لنبوءته صلى الله عليه وسلم: ((وَيْلٌ للعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ فتناً كقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً ويُمسي كافراً، يَبِيعُ قَوْمٌ دِينَهُمْ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنيا قليلٍ، المُتَمَسِّكُ على دِينِهِ كالقابض على الجمر))[1] رواه أبو داود وأحمد واللفظ من حديث أبي هريرة .

هذه المجتمعات العربية والإسلامية تملأ اليوم ساحة العالم طنيناً عن الإسلام والتربية الإسلامية والحكم بالإسلام، وهم في حقيقة تصوير نبي الإسلام لهم في حالهم المريض لا يتجاوزون قوله: ((لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زَمَانٌ يُؤْمِنون باللهِ ولا يُشركون به شيئاً ويَصُومُونَ رَمَضانَ ويُصَلُّونَ الخَمْسَ وقد سُلِبُوا دِينَهُمْ لأَنَّهُمْ رَأَوُا الحَقَّ فتَرَكُوهُ)) .

هؤلاء الذين ابتلاهمُ اللهُ برؤيةِ الحَقِّ ومَعْرِفتِه ثم التَّغاضِي عنه، وتَرَكَهُ قَوْمٌ فَرَّطُوا في حقيقة الإيمان والأمانة مع أَنَّهُمْ لم يَخْرُجُوا عَنْ قَانُونِ الإسلامِ العامِّ وما فَرَّطُوا في وَاجِبٍ ولا لازِمٍ، ولَعَلَّهُمْ حَرَصُوا فَوْقَ الواجبِ على السُّنَّةِ، حتّى ظَنَّ الظّانُّونَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ جَمَعُوا شُرُوطَ الكَمالِ في الأخذِ بالأصوليّةِ الأساسيةِ في الإسلام،

---

(١) وفي رواية: ((كالقابض على الشوك)).

وبدؤوا يَحْمِلُونَ الناسَ على ما هم عليه، وهم لا يعلمون أن جوهرَ الإسلامِ وحقيقتَه ليس بأيديهم وليسوا من أهله .

وَرَدَ عن حذيفةَ بنِ اليَمانِ رضي الله عنه قوله: « إنّ أقواماً يقولون: إيمانُنا كإيمانِ الملائكة، ما فينا كافرٌ ولا منافقٌ، حَقٌّ على اللهِ أَنْ يَحْشُرَهُمْ مَعَ الدَّجّالِ » رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.

هذه المجتمعات الإسلامية اليوم قد حَقَّ عليها قولُ نَبِيِّها صلى الله عليه وسلم، وهي بكافّةِ ظواهرها ومظاهرها ودُنْيَاها ودِينِها علامةٌ من علامات الساعة، لأنها منعدمةُ الإيمانِ الحقِّ والأمانة .

رَوَى ابنُ وَضّاحٍ في « البدع » والحاكم في « المستدرك » من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: « أَوَّلُ ما تَفْقِدُونَ مِن دِينِكُمْ الأمانَةَ، وآخرُ ما تَفْقِدُونَ الصلاةُ، ولَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، ولَتُصَلِّيَنَّ النِّساءُ حُيَّضاً، ولَتُسْلُكُنَّ طريقَ مَن كان قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ وحَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ لا تُخْطؤُونَ طَرِيقَهُمْ ولا تُخْطِئُكُمْ.. إلخ»[1] .

وهذه الأماراتُ كادتْ أن تجتمع اليوم في العالم الإسلامي من طرفه إلى طرفه بتفاوتٍ نسبيٍّ بسيطٍ، والناسُ في غفلةٍ عن ذلك، والأمرُ مقضيٌّ من عند الله، وترعى هذه الظواهر الخطيرة أنظمة الغثائية، ومنها أنظمةٌ ترى أنها وارثةُ الإسلام والقائمة عليه، ومن داخلها يُنخر صرح الإسلام وتتهاوى قواعده وشروطه، وتتبدى علامات الساعة التي أخبر عنها سيد البرية صلى الله عليه وسلم في

---

(١) قال الحاكم: صحيح الإسناد، وله بقية .

أكثر البلاد قداسة وكرامة على الله ورسوله، ولا يستطيع أحد أن يقول كلمة الأمانة والإيمان، بل تراه لا يجسر أن يقول للظالم: يا ظالم .

قال عليه الصلاة والسلام: « إذا هَابَتْ أُمَّتي أَنْ تقول للظالم: (يا ظالم) فقد تُوُدِّعَ منها »، وروى الطبراني من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى لله عليه وسلم قال: « ستُغَرْبَلُون حَتّى تَصِيرُوا حُثَالَةً من النّاسِ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وخَرَبَتْ أَمانَاتُهُمْ»، فقال قائل: فكيف بنا يا رسول الله ؟ قال: « تَعْمَلُونَ ما تَعْرِفُون وتَتْرُكُونَ ما تُنْكِرُونَ، وتَقُولُونَ: أَحَدٌ أَحَدٌ، اُنْصُرْنا على مَنْ ظَلَمْنا واكْفِنا مَن بَغانا » [1] .

والبقية الباقية من أهل الأمانة والإيمان إنما هم يعيشون محنة الزمان وفتنه، وجلُّ أمرهم الصبر والابتهال إلى الله، أن يعجّل بالموعود، وأن يصلح ما فسد من أمر هذه الأمة المرحومة، وعليهم أن يبذلوا النصح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، فالحياة بالنسبة لإيمانهم وأمانتهم موقع اختبار، وكلما عبرت رياح فتنة صبروا على شدتها حتى تنفرج فيخرجون وهم ثابتون على ما كانوا عليه، تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: « والذي نَفْسُ محمدٍ بيده لا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى يَظْهَرَ الفُحْشُ والتَّفَحُّشُ وسُوءُ الجِوارِ وقَطِيعَةُ الأَرْحامِ، وحَتّى يُخَوَّنَ الأَمِينُ ويُؤْتَمَنَ الخَائِنُ »، قيل: يا رسول الله،

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط »، وذكره الغماري في « الاختراعات العصرية » ص٨٠ .

فكيفَ المُؤْمِنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: « كالنحلةِ وَقَعَتْ فلَم تُفْسِدْ وأَكَلَتْ فلَمْ تُكْثِرْ ووَضَعَتْ طَيِّباً، ومَثَلُ المُؤْمِنِ كمَثَلِ قِطْعَةِ الذَّهَبِ الأحمرِ دَخَلَتِ النّارَ فنُفِخَ عليها فلَمْ تَتَغَيَّرْ، ووُزِنَتْ فلم تَنْقُصْ » [1] .

---

(١) رواه البزار والحاكم وصححه .

ظهور الأحداث السفهاء

روى البخاري ومسلم من حديث علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « سيَخْرُج في آخرِ الزّمانِ قَوْمٌ أحداثُ الأسنانِ سُفَهاءُ الأحلامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيرِ قَوْلِ البَرِيّةِ لا يُجَاوِزُ إيمانُهم حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُون من الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّة، فأَيْنَما لَقِيتُمُوهُمْ فاقْتُلُوهُمْ فإِنَّ في قَتْلِهِمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ » .

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يَخْرُجُ في آخِرِ الزّمانِ قَوْمٌ أَحْداثُ الأَسْنَانِ سُفَهاءُ الأَحْلامِ يَقُولُونَ مِن خَيرِ قَوْلِ النّاس، يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَراقِيهم، يَمْرُقُون مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فمَن لَقِيَهُمْ فلْيَقْتُلْهُمْ فإِنّ قَتْلَهُمْ أجرٌ عِنْدَ اللهِ لِمَنْ قَتَلَهُمْ » .

إنّها مَرْحَلَةٌ مِنْ أَخْطَرِ مَراحِلِ الحياةِ الاجتماعيةِ تَبْرُزُ فيها هذه العلاماتُ والدلالاتُ؛ ولكنَّ خَطَرَها في أمرين:

الأول: أنها مَظْهَرٌ يَدْعُو إلى الدِّينِ والقرآن .

الثاني: أَنّ وَقُودُها النّاشِئَةُ والأَحْدَاثُ .

والدعوةُ إلى الدِّينِ مَطْلَبُ المُؤْمِنِينَ وبُغْيَتُهُمْ، وما صَبَرُوا على الفِتْنةِ وشِدّةِ المِحْنَةِ إلاّ لِحُبِّهِمْ للدِّينِ ويَقِيناً في وَعْدِ سَيِّدِ المُرْسَلِين .

والناشئةُ الأحداثُ هم القوةُ الدافعةُ، والحيويةُ الواعدةُ في كل جيلٍ وأمةٍ، وإذا ما اعتنقوا رؤيةً أو خالط قلوبهم فكرٌ أَوْقَدُوا من أجل تحقيقه مشاعلَ التصميم والعزم في الحياة، وقد شهدت الأمة في مجرى التاريخ الماضي والحاضر أثر الناشئة في التغيير والثورات والمسيرات وفي الرفض للاستعمار ورموزه، وكانت ناشئة البلاد العربية والإسلامية وراء كثير من تطورات الأحداث في القرن الماضي، بل كانت المدارس والجامعات موقع البراكين المتفجرة على الأنظمة والكيانات .

والإسلام لا يحابي أحداً ولا يمدح من لا يستحق المدح والثناء بل يضع كل شيء في موقعه، وكلام الصادق المصدوق هو العلاج الناجع وهو المشخص الساطع، ومن خلال تشخيص النبوة للناشئة آخر الزمان يتضح الأمر بالبرهان سواء كانوا دعاة للثورة والحرية والاستقلال أو كانوا دعاة للرؤى والأفكار الدينية المنادى بها في هذه الأزمان .

فالواقع المتناقض، وقد قطع شوطاً لا يحسد عليه في البعد عن التربية الإسلامية، وصار يفوج الناشئة المتعلمة المثقفة ببرامج المعرفة التي لا تهتم بالتربية الخلقية ولا تباركها بل لا ترى في معلميها ومثقفيها ورجال إدارتها من يمارس شيئاً منها، وترى في الواقع المعادل وسائل إعلام وأفلام وإغراءات تحرك النوازع وتقيم قاعدها، وتستثير الشهوات وتستثمر عائدها، وتحطم الشرف والفضيلة وتسحق قواعدها، وصار المنــزل ركام شهوة وموسيقى،

والمدارس والمعاهد مناطق تجمع لحمي من ذكر وأنثى، ونشاطات الحياة الاجتماعية كلها داعية إلى الإثارة والإغارة، ودعاة الواقع السياسي والحكومي يرعون هذا الإسفاف ويبرمجون لمثله وشبهه خطوة بعد خطوة، ويعيشون سكارى الفتنة والتسييس لها.

ولعل أكثرهم هدوءاً وكياسة من لا يقحم نفسه في أتون الواقع المفتون بشحمه ولحمه، بل يختار المكان والزمان والفريسة المناسبة في هدوء وصمت ويستثمر التسييس للواقع دون الحاجة إلى مشاركة الواقع، ولهم في هذا الإسفاف تقول وجدل وسفسطة وأحابيل .

والأحداث الناشئون أول ضحايا هذه الأحابيل والأضاليل، خصوصاً وأن التربية الإسلامية الأبوية قد كادت أن تتلاشى إذا لم تكن قد تلاشت كلية من الواقع الموبوء .

ومجت الناس خلال المراحل السالفة أسلوب الحيلة والخداع والتمويه، وتكشّف للمسلمين ما يحيطهم به أعداؤهم من سياسات الاستشراق والاستغراق، واستشعرت القوى العالمية ظهور البوادر اليقينية عن صحوة الأمة من سباتها وقيامها من رقدتها، وكان عليها أن تقدم في سبيل الاستمرار ضحية كبيرة، وطعماً سميناً، فكان الأمر سقوط الشيوعية واحتضان الصحوة الإسلامية تحت سياسة النظام العالمي الموحد، وتحولت مناطق العالم الإسلامي إلى أتون إسلامي ومنطلق ديني، إلا أنه يتخذ شكل التيارية والحزبية والفئوية كما تقتضية سياسة المرحلة .

وصار الناشئة والأحداث في غمرة هذه الدفعات الإسلامية والقفزات الإعلامية أول المبادرين إلى التأييد والنصرة للفتح الجديد، إذ هم لا يدركون أكثر مستوى الحدث المشاهد أمام أعينهم، ولا يستوعبون أوسع مما تضعه لهم سياسات شيوخهم وقادتهم . وكانت نتيجة والثمرة كما أخبر عنها سيد البرية صلى الله عليه وسلم في آخر الزمان .

وزاد الطين بَلَّةً وجود الشقة والخلاف داخل الأسرة الواحدة والبيت الواحد تحقيقاً لقوله صلى الله عليه وسلم عن ظواهر الساعة «يكون الولد غيضاً»، وهذا أمر ملموس في الواقع ولم يقتصر على بيوت الجهال والعامة وإنما انتقل إلى بيوت العلماء والخاصة، وصار الولد يرد عبادة أبيه ويرفض معتقده وينتقد توجهه وسيرته، وصارت تربية الولد مرهونة بشيوخ المرحلة يوجهونه ضد أبيه ومجتمعه وضد المسلمين أجمع .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن مقتضيات الرفض من الولد للوالد فقال صلى الله عليه وسلم: « إذا اقترب الزمان لأَنْ يُرَبِّيَ الرَّجُلُ جَرْواً -أي ولد الكلب- خيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُرَبِّيَ وَلَدَه » رواه الطبراني في « الأوسط » .

ولعل في تربية المرء للكلب نفعاً من حيث استجابته الطوعية للأمر والقيام به، أما الولد المتشبع بما يقذفه الأحداث في صدره فهِمَّتُهُ وتوجهاتُه لا تسوّغ له البر للوالدين كأمر يتعبد الله به فضلاً عن الاستماع والاتباع المطلق .

والأحداث هم فتيلة الاشتعال عند كل فتنة، ترمي بهم عناصر التسييس بعد خلط الأمر عليهم ليفتحوا ثغرة في جدارالواقع، ثم تنفذ العناصر المحركة منه ويطؤون بأقدمهم أحداث التحولات وعسكر الاستجابة الانفعالية، ولهذا نكرر القول لهؤلاء المخدوعين بعناصر التسييس للعلم، اسمعوا ما يقوله ابن مسعود، إن كنتم تتحدثون عن العلم «لا يُقَلِّدُ أَحَدُكُمْ دِينَهُ رَجُلاً فإِنْ آمَنَ آمَنَ، وإِنْ كَفَرَ كَفَرَ، وإِنْ كُنْتُمْ لابُدَّ مُقْتَدِينَ فاقْتَدُوا بالمَيِّتِ، فإِنَّ الحَيَّ لا يُؤْمَنُ عَلَيهِ الفِتْنَةُ»[1].

وأما مسألة القتل التي أشار إليها الحديث فالمخاطبة موجهة إلى الحاكمية الإسلامية، وما يجب أن تتخذه داخل الحظيرة الاسلامية لبتر هذا الداء، وليس الخطاب موجَّهاً لكلّ فردٍ من الناس، فالإطلاق يؤدي إلى الفوضى والتجاوز، والحاكميّة المخاطَبة هي حاكميةُ الكتابِ والسُّنَّة على وجهها الإسلامي الصحيح، لا الوجه الإعلامي القبيح .

(١) رواه الطبراني في « الكبير » ورجاله رجال الصحيح، وذكره في « مجمع الزوائد » (١: ١٨٠) . راجع « البدعة » للدكتور عزت علي عطية ص ٢٥٠ .

شرار الخلق عند الله

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يجيء أقوام في آخر الزمان تكون وجوهُهم وجوهُ الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين، لا يَرْعَوُونَ عن قبيح، إن تابعتَهم وارَبُوك - أي خانُوك -وإن تواريتَ عنهم اغتابوك، وإن حدّثوك كذّبوك، وإن ائْتَمَنْتَهُمْ خَانُوك، صَبِيُّهُمْ عَارِمٌ وشابُّهُمْ شَاطِرٌ وشَيخُهُم لا يَأْمُرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكر، الاِعْتِزازُ بِهِمْ ذُلٌّ، وطَلَبُ ما في أَيْدِيهِمْ فَقْرٌ، الحَلِيمُ فِيهِمْ غاوٍ، والآمِرُ فِيهِمْ بالمَعْرُوفِ مُتَّهَمٌ، والمُؤْمِنُ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفٌ، والفاسِقُ فيهم مُشَرَّفٌ، والسُّنَّةُ فِيهِمْ بِدْعَةٌ، والبِدْعَةُ فِيهِمْ سُنَّةٌ، فعِنْدَ ذلك يُسَلِّطُ اللهُ عَلَيهِمْ شِرارَهُمْ، ويَدْعُو خِيارُهُم فلا يُسْتَجابُ لَهُمْ » رواه الطبراني في « الأوسط » و« الصغير » .

وهذه إحدى دلالات الساعة المشاهدة اليوم في حياة المسلمين، وهي من نبوءاته صلى الله عليه وسلم، إذ صارت هذه الدلالات المشار إليها واجهةَ السلوك في خاصة المجتمع وعِلْيَتِهم، فضلاً عن عوامهم ودهمائهم، واستشرت هذه الظواهر كغيرها في الرجال والنساء، وفي موظفي المؤسسات ومديري الخدمات وفي رؤساء

الدول والوزارات، ولم تقف حتى عند القائمين بالقضاء الشرعي في محاكم العدل والقسط في كثير من بلاد المسلمين .

ولهذا يكون فيهم المؤمن مستضعفا والفاسق مشرفا، ومن هذه العوامل الخطيرة التي حلت بالأمة سلط الله عليهم الأشرار انتقاماً منه جل وعلا، ولا تقبل عند ذلك دعوة الأخيار، لما قد سبق من علم الله أن النقمة حلت في هذه النماذج الرافضة للخير وأهله ﴿وكانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾، وكم شَهِدَ اليَمَنِيُّونَ في بلادهم خاصةً وشهدت أمة الإسلام في العواصم والمدن من تَسَلُّطِ الأشرارِ ونِكايتهم بالأخيار والصلحاء والأولياء والعلماء والسخرية منهم ومن أحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ومواعظهم واتهاماتهم بالتخلف والجمود والتحجر وإلى غير ذلك من عبارات التهكم والازدراء.

وهذا هو الوعد الحق الذي وعد به سيد الخلق، بل واستعاذ منه صلى الله عليه وسلم فيما رواه أحمد في «مسنده» من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهُمَّ لا يُدْرِكُني زَمَانٌ -أو: «لا تُدْرِكُوا زماناً» - لا يُتَّبَعُ فيه العِلْمُ ولا يُسْتَحْيا فيهِ مِنَ الحَلِيمِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الأَعَاجِمِ وأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ العَرَب» .

وكثير اليوم من ناشئة وشباب المسلمين إنما تعلقت قلوبهم بما في بلاد الأعاجم من العلوم النظرية والتطبيقية، واستهانوا بدينهم وشريعة نبيهم وقدسوا قوانين الغرب والشرق وتخرجوا من مدارسهم، وصاروا لهم ألسنةً تُعَرِّبُ الأفكارَ الشرقية والغربية

وتروّج للنماذج العلمانية، وقد عاصرنا عددا من هؤلاء في محنة البلاد اليمنية عشية هيمنة الطاغوت الشرقي، بعد الطاغوت الغربي، وشاهدنا موقف العديد من علماء الدين وهم يعانون المرارة ويتجرعون الغصص تلو الغصص من سوء المعاملة وفساد المقابلة، وسياسة المخاتلة التي كان يعاملهم بها رموز التيارات وشخوص السلطات ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ والّذِينَ آمَنُوا وما يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُم وما يَشْعُرُون﴾ . قال عليه الصلاة والسلام: ((يأتي على النّاسِ زَمَانٌ لا يُتَّبَعُ فيه العالِمُ ولا يُسْتَحْيا فيهِ مِنَ الحَلِيمِ، ولا يُوَقَّرُ فيه الكبيرُ ولا يُرْحَمُ فيه الصغيرُ، يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً على الدنيا، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الأَعَاجِمِ وأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ العَرَب، لا يَعْرِفُون مَعْرُوفاً ولا يُنْكِرُونَ مُنْكَراً، يَمْشِي الصّالِحُ فِيهِمْ مُسْتَخْفِياً، أُولَئِكَ شِرارُ خَلْقِ اللهِ، ولا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيهِمْ يَومَ القِيامَةِ)) .

ولن يكون الأشرار على هذا الحال البغيض عند الله إلا لكونهم قد امتلكوا زمام التأثير والتسلط، ومتى ما وصلوا إلى ذلك تحققت المقولات النبوية الآنفة، وزاد عليها ما قاله صلى الله عليه وسلم في حديث شداد ابن أوس رضي الله عنه ((لَيَحْمِلُنَّ شِرارُ هذه الأمةِ على سَنَنِ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، فَهُمْ شِرارُ الخَلْقِ)) .

وأهل الكتاب في تاريخ الأديان قد عرفوا بتحريف كتبهم وتغيير مفاهيمها التي أنــزلت على أنبيائهم بشهادة القرآن عليهم في ذلك، والأشرار من هذه الأمة سيحذون حذوهم في التحريف، وقد شهد

المسلمون في العديد من عواصم العالم العربي والإسلامي ولاةً وحكاماً ورؤساءَ أشراراً حملوا على عواتقهم تحريف القرآن والسنة لخدمة دعواتهم وآرائهم ومناهجهم .

فالذين اخترعوا الاشتراكية في الإسلام حاولوا قدر جهدهم أن يطوعوا الآيات والأحاديث الإسلامية ذات المبدأ المتفرد عن الدعوات النظرية لتخدم برامجهم السياسية والاقتصادية ووجدوا من المخدوعين من أسعفوهم .

والذين أعلنوا الإلحاد والشيوعية تعسفوا في فهم التاريخ والقرآن والنصوص ليموهوا على الأمة أكاذيبهم وحيلهم من تقارب الرؤية الإسلامية والأفكار الشيوعية في مبدأ العدالة الاجتماعية، حتى قسموا شخوص الصحابة رضي الله عنهم إلى دعاة اشتراكية ودعاة أرستقراطية، افتراءً على الله وعلى رسوله وعلى المؤمنين .

ودعاة التوليف في عواصم المتناقضات فرقوا بين سلطة الدولة وسلطة الدين، وصار كل فريق من السلطتين يتخذ كتاب الله وسنة رسوله حجته وشرعته ومبدأ تطبيقه، وبين نشاط السلطتين سلطةً ثالثةً تخدم ترجيح السلطة الدينية ضد السلطة الحكومية، وحيناً تخدم السلطة الأخرى -أي الحكومية- ضد الدينية، وكل السلطات تحفر خندقاً مصيرياً واحداً، وقد استشرى من داخل هذه السلطات مدٌّ دينيٌّ ثائر يستمد قواعد فقهه ونشاطه من ثمرات دعاة التوليف، ومن هذه الثمرات يمدون في بلاد المسلمين بدائل القواعد الدينية المتوارثة، ونواقض المذاهب الفقهية، ولا يقدرون لعلماء

الإسلام قدراً ولا يرون لأحد منهم فضلاً يمتاز به في خدمة الإسلام إلا ما طابق الهوى وصادف الرغبة والرؤية، يقولون في عباد الله ما لم يقله أحد من السلف، ويتهمون الصالحين الْبُرَآءِ بفساد العقائد وانحراف المقاصد، يصدق فيهم وفي شيوخهم قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: « سيَخْرُجُ قَوْمٌ في آخِرِ الزّمانِ هُمْ دَجّالُونَ كَذّابُونَ بِبِدْعٍ مِنَ الحَدِيثِ لم تَسْمَعُوا بِهِ أَنْتُمْ ولا آبَاؤُكُمْ، فإِيّاكُمْ وإِيّاهُمْ لا يَفْتِنُونَكُمْ » [1] .

وفي هذه المجتمعات التوليفية الجامعة للمتناقضات تجد من دعاة الشر من يتقمص الإسلام ويتحدث به، ويأكل الدنيا بالدين، شغله الشاغل تلمس العيب للبرآء وتجميع نقائص منافسيه، يستغل كافة قدرات جماعته في سبيل تشويه المؤمنين وإفساد ناشئة المسلمين، وما ترى الأخيار بينهم إلا على غاية الخوف والاستخفاء، ينطبق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم: « سيَظْهَرُ شِرارُ أُمَّتي على خِيارِهِمْ، حَتّى يَسْتَخْفِيَ فِيهِمُ المُؤْمِنُ كما يَسْتَخْفِي فِيكُمُ المُنَافِقُ اليومَ » [2] .

وروى الديلمي في « مسند الفردوس » موصولاً من حديث جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يأتي

---

(١) رواه ابن وضاح في « البدع » من حديث أبي هريرة، واستشهد به الغماري في «الاختراعات العصرية» .

(٢) ذكره أبو شعيب الحراني في « فوائده »، وذكره الغماري في « الاختراعات العصرية » ص٩٩ .

الناسِ على زمانٌ يستخفي فيهمُ المؤمنُ كما يَسْتَخْفِي المنافقُ فيكمُ اليومَ » وروى الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « مِنِ اقْتِرابِ السّاعَةِ أَنْ تُرْفَعَ الأَشْرَارُ وتُوضَعَ الأَخْيَارُ » .

وهذا بَيِّنٌ وواضحٌ في بلدان المسلمين اليوم، فدعاة الأفلام والأزلام والإعلام إنما يمجدون ويظهرون الفنانين والفنانات والممثلين والممثلات، ويروجون الدعايات ويقدسون اللاعبين وأصحاب الرياضات، وفي أكثر بلاد الإسلام حديثاً عن الشريعة ما ترى الارتفاعَ والانتفاعَ إلا لدوائر الحكم وسماسرة التوليف، ولنجوم الألاعيب واللهو والتجارات، ويغيظهم كل الغيظ كشف حقائقهم وأكاذيبهم، إذ هم يرون مجتمعهم التوليفي لا يختلف عن مجتمع الصدر الأول في الإسلام، وهكذا يقولون.

استحلال ما حرم الله

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي عامر وأبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لَيَكُونَنَّ في أُمّتي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّون الحِرَّ والحَرِيرَ والخَمْرَ والمعازفَ».

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنّ أُناساً مِن أُمَّتي يَشْرَبُونَ الخَمْرَ يُسَمُّونَها بغَيرِ اسمِها» قال الحاكم: صحيحٌ على شرط البخاري ومسلم .

وقد حَلّتْ هذه المناكرُ المُشارُ إليها في أمة الإسلام، ولم تقف عند ممارسة الأمر الحرام وإنما تهيئة أسبابه وخدمة مؤسساته، فالحديث يشير إلى استحلال الفروج، وهو المعبر عنه في الحديث، بالحِر بكسر الحاء، وهذا ما شوهد ويشاهد في حياة الكثير من جيل السينما والفيديو التلفاز والرياضة، ولا تخلو بلاد إسلامية من الترويج لهذا الأمر وتحريك أسبابه سواء بالبث العام أو بما يباع ويسوق في المحلات العامة .

أما الخمر فحدث ولا حرج، فما من بلاد إسلامية إلا وفيها مصانع للخمرة، إما أن تكون مصانع خفية لا يعرفها إلا مروجو هذا النتن الخبيث، وإما أن تكون معلنة تسهم في الدخل القومي

للبلاد، وقد صارت في مدينة عدن من المشروبات المألوفة خصوصاً بعد نجاح المصنع الحديث الذي اعتنت به الدولة أكثر من عنايتها بمصنع الغزل والنسيج، وتهيأ للجمهور الوقوع في معاقرة الخمر رجالاً ونساء، وقد كان في مرحلة الاستعمار البريطاني يشرب الخمر بالخفاء وله رجاله ومروجوه بصورة سرية وخفية، أما في عهد الاستقلال فقد انقشع الحياء وصار الوطني الحق والثوري المخلص من يرمي بعقد الماضي ومخلفات العهود السالفة كما يقولون فيعاقر الخمر علناً .

وقد شاهدنا في بعض الأرياف من يعاقر الخمر في رمضان علناً في مكان عام ودون أدنى خجل أو وجل، وكم في مجتمعات المسلمين من هذا الاستهتار بالحدود الشرعية واستحلال المحرمات اليوم، وقد روى الحاكم في « المستدرك » عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن الزلزلة فقالت: « إِنَّ المَرْأَةَ إذا خَلَعَتْ ثِيابَها في غَيرِ بَيْتِ زَوْجِها هَتَكَتْ ما بَينَها وبين اللهِ عزّ وجَلَّ مِن حِجَابٍ، وإِنْ تَطَيَّبَتْ لِغَيرِ زَوجِها كانَ عليها ناراً وشَناراً، فإذا اسْتَحَلُّوا الزِّنا وشَرِبُوا الخُمُورَ بعدَ هذا وضَرَبُوا المعازفَ غارَ اللهُ في سمَائِهِ فقال للأرضِ: تَزَلْزَلِي بِهِمْ، فإِنْ تَابُوا ونــزعُوا وإلا هَدَمَها عليهم »[1]، ولقد تزلزلت الأرض بالعديد من دعاة الحرام في اليمن الكبير، وأذاقهم الله شر أعمالهم وسيئ أحوالهم، وماتوا شر موتة وقُتّلوا شر قتلة .

---

(١) قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرّجاه.

ومن الاستحلال لما حرم الله وقوع الكثير من المسلمين في ظلم بعضهم البعض وسلب الأموال بغير حلٍّ وسكنى البيوت ونهب الأطيان، وقد كانت بعض الحكومات الطاغوتية هي المدبرة لذلك والمؤيدة له لما فيه من فساد وإفساد وسوء علاقات بين العباد، ومن ذلك ما حصل في جنوب اليمن حيث طبقت حكومة الثورة قوانينها الغريبة، كقانون التأميم وقانون الإصلاح الزراعي ثم فوضى الانتفاضات وما رافقها من استحلال دماء الأبرياء وسحل العلماء والسخرية بالأتقياء .

ومن صور الاستحلال لما حرم الله أكل الربا، الذي حرمه الله وصنفه في السبع الموبقات لخطره وعظم أمره، وقد استشرى خطره في كثير من البلاد الإسلامية حتى تكاد ألا تجد فيها إلا من يتعامل بالربا، خصوصاً الذين يفتحون الاعتمادات المالية والتجارية مع الشركات الأجنبية، وحق في الكل قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: « لَيَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلاّ أَكَلَ الرِّبا، فمَن لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِن غُبَارِه » رواه أبوداود وابن ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة . وعن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تَقُومُ السّاعَةُ حَتّى يُعِزَّ اللهُ عَزّ وجل فيه ثَلاثَةً: دِرْهَماً من حلال وعلماً مستفاداً وأخاً في الله » .

وكأني بهذه الثلاث كلها قد عزت في هذا الزمان فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل فنعم المولى ونعم النصير .

بين يدي الدجَّال

عن هشام بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما بين خَلْقِ آدَمَ إلى قيامِ السّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجّال » رواه مسلم.

وعن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: « بَيْنَ يَدَيِ السّاعَةِ الدَّجّالِ، وبَيْنَ يَدَيِ الدَّجّالِ كَذّابُونَ ثَلاثُونَ أَوْ أَكْثَرْ، قال: ما آيَتُهُمْ؟ قال: أَن يَأْتُوكَ بسُنَّةٍ لم تَكُونُوا عليها يُغَيِّرُونَ بها سُنَّتَكُمْ ودِينَكُمْ، فإذا رَأَيْتُمُوهُمْ فاجْتَنِبُوهُمْ وعَادُوهُمْ » رواه الطبراني [1] .

(الدّجْلُ) هو قَلْبُ الحقائقِ إلى باطلٍ وقَلْبُ الباطلِ إلى صورةِ الحق، وهي فتنةٌ خطيرةُ الأثرِ والتَّأَثُّرِ على الأمة سواءً من حيثُ أَمْرِ دِينِها أو أَمْرِ دُنياها، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن وقوعها بصورتين:

الأولى: ظهورُ دَجاجِلَةٍ كَذّابِينَ يَفْتِنُونَ الناس في دينهم .

الثانية: ظهورُ الدّجّالِ الأَعْوَرِ الذي وَصَفَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رمز له « كنــز العمال » برقم (٣٨٣٨) (١٤: ٢٠٠) وفيه ضعف .

ولما كانتْ فِتْنَةُ الدّجّالِ خَطِيرَةً على هذه الأمة فقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم أمرها للناس وصفاً دقيقاً، فوَصَفَ الدّجّالَ وهَيْأَتَهُ وشَكْلَهُ ومدة إقامته ووسائل فتنته ومن هم أتباعه، ووصف نهايته وقتله .

ولسنا هنا بصدد الدجال ذاته وإنما نحن بصدد الفتن التي تمهد للدجال وتسبق ظهوره، وهي الفتنة التي حذر صلى الله عليه وسلم منها ومن آثارها، وقد بين حديث الطبراني الآنف آيتهم، أي: علامتهم، قال يأتوك بسنة لم تكونوا عليها يغيرون بها سنتكم ودينكم، والسنة هي الطريقة، وعلامة الدجاجلة أن يفتعلوا الأسباب لنقض عرى العبادات والعادات ليغيروا بها مجرى التأثير ويصرفوا بها الناس عن سنن السلف إلى ما يأتون به من سنن الابتداع وأساليب الإقناع.

وفي أمة الإسلام اليوم بوادر هذا التغيير واضحة ومتطورة ولها من المؤسسات والأموال والرجال ما يؤكد استشراء الفتنة وحماس رجالها في سبيل وضع سنة مكان أخرى، وغرضها كما هو بادٍ للعيان ومشاهد بالبرهان قلع جذور المظاهر الدينية المتوارثة وإنبات البرامج المقبوضة الحديثة، ولا تخلو هذه الرؤى من الاستدلال بالكتاب والسنة، ونصر الإسلام والمسلمين، والتحدث بلسان القرآن وملة سيد المرسلين، وقد تهيأ الظرف العالمي والمحلي لقبول الأمة آثار الدجال وامتداد وسائطه ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيئاً ﴾ .

وقَدْ أَشَارَ صلى الله عليه وسلم إلى صورةِ هذا الرجلِ الفاتنِ عقولَ الناس قُبَيل ظهور الدجال فقال صلى الله عليه وسلم: « لَفِتْنَةُ بَعْضِكُمْ أَخْوَفُ عِنْدِي مِن فِتْنَةِ الدَّجّالِ، ولَيْسَ مِن فِتْنَةٍ صَغِيرَةٍ ولا كَبِيرَةٍ إلا تَضع لِفِتْنَةِ الدَّجَّالِ، فمن نجَا مِن فِتْنَةٍ قَبْلَها نجَا، وإنّه لا يَضُرُّ مُسْلِماً، مكتوبٌ بَينَ عَيْنَيْهِ (كافر) » .

وهنا يفتح لنا صلى الله عليه وسلم لنا صورة الواقع المفتون على مصراعيه، فالفتنة الخطيرة حقاً على الأمة ليست من الدجال ذاته، وخطره لا محالة قادم، وأما الفتنة الحالقة الماحقة الساحقة، الفتنة التي خاف علينا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي التي تكون بين يدي الدجال الأعور .

ومن ظواهر أهلها قوله صلى الله عليه وسلم: « يُنَشَّأُ نَشْءٌ يَقْرَؤُونَ القُرآنَ لا يجُاوِزُ تَرَاقِيهم، كلما خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ حتى يخرجَ في أعراضِهم الدَّجَّالُ » أخرجه ابن ماجه [(١)] .

والفتنة بين يدي الدجال تكون على قسمين:

الأول: ظهور دجالين كذابين يدَّعون النبوة .

الثاني: ظهور دجاجلة من العلماء والأئمة المضلين .

والقسم الأول وردت فيهم أحاديث كثيرة منها:

عن عمر رضي الله عنه قال: «إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالاً كذاباً»[(١)]، وعن حذيفة رضي الله عنه قال: « في أمّتي كَذّابُونَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب ذكر الخوارج، وقال في « الزوائد » : إسناده صحيح، راجع « كنــز العمال » (١٤: ٣٠٥) برقم (٣٨٧٧٤) .

ودَجّالُونَ سَبْعَةٌ وعِشْرُونَ مِنْهُمْ أَرْبَعُ نِسْوَةٍ، وإِنّي خَاتَمُ الأنبياءِ ولا نَبِيَّ بَعْدِي »[٢].

وأما القسم الثاني من الأئمة المضلين ففيهم أيضاً أحاديث منها:

ما رواه مسلمٌ في باب الفتن « غَيرُ الدّجّالِ أَخْوَفُني عَلَيكُمْ »، وقوله صلى الله عليه وسلم: « لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإسلامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، ولَتَكُونَنَّ أَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ، ولَيَخْرُجَنَّ على إِثْرِ ذلك الدَّجَّالُونَ الثَّلاثَة » رواه الحاكم عن حذيفة[٣]، ومنها حديث الطبراني والبغوي عن رافع بن خديج « يَكُونُ قَوْمٌ مِن أُمَّتي يَكْفُرُونَ باللهِ وبالقرآنِ وهُمْ لا يَشْعُرُون كما كَفَرَتِ اليَهُودُ والنَّصارى، يُقِرُّونَ ببَعْضِ القَدَرِ ويَكْفُرُونَ ببَعْضِه، يَقُولُونَ: الخَيْرُ مِنَ اللهِ والشّرّ من إبليس، فيَقْرَؤُون على ذلك كتابَ الله ويكفرونَ بالقرآن بعد الإيمان والمعرفة، فما تَلْقَى أُمّتي منهم من العداوة والبغضاء والجدال، أولئك زنادقة هذه الأمة، في زمانهم يكون ظلم السلطان، فيا لَهُ مِن ظُلْمٍ وحَيْفٍ وأَثَرَةٍ، ثم يَبْعَثُ اللهُ طَاعُوناً فيَفْنَى عَامَّتُهُمْ، ثُمّ يكونُ الخَسْفُ فما أَقَلّ مَن يَنْجُو مِنْهُم، المؤمنُ يَوْمَئِذٍ قليلٌ فَرَحُه، شَدِيدٌ

---

(١) ذكره « كنــز العمال » (١٤: ٣٠١) برقم (٣٨٧٦٢) .

(٢) رواه الطبراني وأحمد، « كنــز العمال » برقم (٣٨٣٦٠) .

(٣) ذكره « كنــز العمال » (١٤: ١٩٦) برقم (٣٨٣٦٢) .

غَمُّهُ، ثم يَكُونُ المَسْخُ فيَمْسَخُ اللهُ عامَّةَ أُولئِكَ قِرَدَةً وخَنازِيرَ، ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجّالُ على أَثَرِ ذلك قريباً »[1] .

وهذه الظواهر المشار إليها في الأحاديث تكاد أن تنطبق في غالبها على ما تعيشة أمة الإسلام، فالإضلال الذي يعيشه المسلمون في أوطانهم على أيدي طواغيت المؤسسات الحاكمة والعالمية والمتعالمة يفسر حقيقة الفتنة ومعناها، فما من بلد من بلاد هذه البلاد المجزأة حكماً وعلماً إلا وهي تقدم من وسائل فتنتها من الدجل والتمويه والمغالطة ما يشتت الأذهان ويوغر صدور أهل الإيمان ضد بعضهم البعض، وكل جهاز إعلام يقدم الإسلام برؤية حكامه ومفكريه حتى صارت ثقافة المسلمين اليوم يحق أن يقال فيها: « إنها ثقافة إعلام لا ثقافة إسلام»، وعلى هذا المنوال ينشأ التلامذة والتلميذات وتوضع المناهج ويتخرج الأجيال وحملة الدرجات والشهادات وهم في غفلة عن حقيقة الإسلام ومنهجه الشامل المتكامل، وبهذا الإضلال والتمويه تنطلي على الأمة خدع الدجاجلة وأباطيل الأئمة المضلين حتى يأتي عهد الدجال الأعور وهم جميعاً على غاية التهيئة والاستعداد، وقد خلق الله للفتنة بين يدي الدجال رجالا، وخلق لفتنة الدجال رجالاً، وكتب في سالف علمه أن من

---

(١) رواه الطبراني والبغوي، ذكره « كنــز العمال » (١٤: ٣٠٨) برقم (٣٨٨٢٨) .

أتباع الدجال رجال قد ماتوا، كما قال صلى الله عليه وسلم: « لَوْ خَرَجَ الدَّجَّالُ لآمَنَ بِهِ قَوْمٌ فِي قُبُورِهِمْ » رواه ابن أبي شيبة[1] .

وتشتبه الأمور على المثقفين والعامة قبيل ظهور الدجال وعند ظهوره، حتى ينساق المؤمن المخدوع إلى الوقوع في الفتنة لما يظهر له من آثار الاقتناع في خدع الشبهات، قال صلى الله عليه وسلم: « مَن سَمِعَ بالدّجّالِ فلَيَنْأَ عَنْهُ، فواللهِ إِنّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيَهُ وهُو يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فيَتْبَعُهُ ممّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهاتِ » .

---

(١) ذكره « كنــز العمال » (١٤: ٦٠٢) برقم (٣٩٦٨٩) .

موقف المؤمنين من إخوان الشياطين

عندما تظهر آيات الله في الأمة وتغزوهم الفتنة من كل جهة يضطر المؤمنون أن يتخذوا لأنفسهم موقعاً يحميهم من الشرور، وقد ظهرت علامات الساعة في هذه الأمة علامة تتلوها أخرى، ووجد المؤمنون المخلصون حرجاً شديداً في مجراة أهل الفتنة ومعايشهم لما أدخلوه في الحياة الدينية والدنيوية من أباطيل وأكاذيب، وشتتوا به وحدة الأمة ومزقوا كيانها، واعتمد كثير منهم على موالاة الكفار والاعتماد عليهم أكثر من اعتماده على أخيه المسلم .

ولهذا السبب الخطير نأى كثير من صالحي الأمة قديماً وحديثاً عن مواقع التأثير في الحياة الاجتماعية ورغبوا في الخلوة والاعتزال، ولم يكن ذلك منهم انتكاساً ولا هروباً من إصلاح الواقع ومعالجة الناس بالحسنى، وإنما كان منهجهم في هذا الحال مقال نبيهم صلى الله عليه وسلم: ((كَيْفَ بِكَ إذا بَقِيتَ في حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وأَمانَاتُهُمْ واخْتَلَفُوا وكَانُوا هكذا؟))،وشَبّكَ صلى اللهُ عليه وسلَّمَ بَينَ أَصَابِعِهِ، قال: فبِمَ تَأْمُرُني ؟ قال: ((اِلْزَمْ بَيتَكَ وأَمْلِكْ

عَلَيكَ لِسانَكَ وخُذْ ما تَعْرِفُ ودَعْ ما تُنْكِرُ، وعَلَيكَ بأَمْرِ نَفْسِكَ، ودَعْ أَمْرَ العَامّة» [1] .

وفي روايةٍ عن حذيفة رضي الله عنه « يكونُ بعدي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بهَدْيِي ولا يَسْتَنُّونَ بسُنَّتِي، وسيَقُومُ فيهم رجالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ في جُثْمانِ إِنْسٍ »، قال حذيفة: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركتُ ذلك ؟ قال: « تَسْمَعُ وتُطِيعُ الأمرَ وإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وأُخِذَ مالُكَ » رواه مسلم . وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا أبا ذَرٍّ كيفَ إذا كنتَ في حُثالَةٍ ؟ »، وشَبَّكَ بين أصابعه، قال: ما تَأْمُرُني يا رسولَ الله ؟ قال: « اِصْبِرْ اِصْبِرْ، خَالِقُوا النّاسَ بأَخْلاقِهِمْ وخَالِفُوهُمْ في أَعْمَالِهِمْ » رواه الحاكم والبيهقي [2] .

وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول كل عشية خميس لأصحابه: سيأتي على الناس زمانٌ تمُات فيه الصلاة ويُشرف فيه البنيانُ، ويكثرُ فيه الحَلِفُ والتلاعُنُ، ويفشو فيه الرشاء والزنا وتُباع الآخرة بالدنيا، فإذا رأيتَ ذلك فالنَّجا النَّجا، قيل: وكيف النجا ؟ قال: كُنْ حِلْساً من أحلاسِ بَيْتِكَ وكُفَّ لِسانَكَ ويَدَك. رواه ابن أبي الدنيا .

---

(١) رواه أبوداود والترمذي وابن ماجه، وذكره البرزنجي في « الإشاعة » ص٨٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

وروى أحمد وأبوداود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « مُرُوا بالمعروفِ وانْهَوْا عن المنكرِ حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً وهَوًى مُتَّبَعاً ودُنيا مؤثرةً وإِعْجابَ كُلِّ ذي رَأْيٍ برَأْيِهِ فعليكَ بخَاصَّةِ نَفْسِكَ، ودَعِ العَوَامَّ فإِنّ مِن وَرَائِكُمْ أَيّاماً الصّابِرُ فِيهِنَّ كالقابضِ على الجمرِ، للعاملِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ بعَمَلِكُمْ » .

(الفرقةُ الناجيةُ) تسميةٌ نبويةٌ منحها الرسول صلى الله عليه وسلم لمن يجمع من هذه الأمة شروط الاستمساك بالعروة الوثقى من الاستقامة والاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم في عهود الفتن والمحن وتناوش التيارات والأفكار والنحل الضالة، وهذه التسمية الصادرة منه صلى الله عليه وسلم تشير إلى سلامة الأخذ فرداً أو جماعةً بهذا السبب الأقوى الموصل إلى طريق النجاة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والنجاة في حد ذاتها منحة أزلية منحها الله عباداً وحرم منها آخرين، وأمر جميع عباده أن لا يتكلوا على أمر السابقة والأزل، وإنما طالبهم بالإخلاص والعمل، فقال صلى الله عليه وسلم: « اِعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له » .

والعمل الصالح في حقيقته مقياسٌ لعبودية العبد وصدق حبه لمولاه، ولا اعتبار لهذا العمل عند مناقشة وتفتيش الحساب من حيث القبول والرد، لأن مَن نُوقِشَ الحساب هلك، والرسول صلى الله عليه وسلم يبين لنا أن العمل تكليف لابد منه، ولكن ليست النجاةُ منوطةً به وحده، قال عليه الصلاة والسلام: « قَارِبُوا وسَدِّدُوا واعْلَمُوا أَنّه لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ بعَمَلِه »، قالوا: ولا أَنْتَ يا رَسُول الله ؟ قال: « ولا أنا؛ إلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْل » رواه

مسلم، وقد بَيَّنَ أهلُ العلمِ أنّ دخولَ الجنّةِ يكونُ برحمةٍ من الله وفضل، وأما تقسيم المراتب والدرجات في الجنة فيكون حسب العمل، وقوله صلى الله عليه وسلم: « سَدِّدُوا وقارِبُوا »، التسديدُ هو الإصابة والمقاربة، أي: القصد الذي لا زيادة فيه ولا تقصير، وهما مقياس الاستطاعة والطاعة من غير إفراط ولا تفريط .

والفرقة الناجية على هذا الحال المشار إليه ليست جماعة معينة في بلد معين ولا تكتلاً دينياً ولا تياراً حزبياً ولا مذهباً فقهياً ولا نظاماً حكومياً بعينه، وإنما الفرقة الناجية عباد الله الصالحون الذين اكتملت فيهم عند مولاهم - لا عند مقاييس العباد - شروطُ الإصابة والمقاربة والتسديد والاستقامة والطاعة والمحافظة على الاستمساك بالعروة الوثقى بما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه في العبادات والعادات والمعاملات، لا يقعون في ظواهر الفتنة ولا تخبطات الأزمان، لا تجمعهم روابط سياسية منحرفة ولا منهجية مسيسة أو برنامج ديني محدد، ولا تستوعبهم مؤسسات تعليمية في مكان مخصوص دون مكان، لأن النجاة المشار إليها في الأحاديث لا يضمنها أحد لأحد، فلا الشيخ ولا المعلم ولا رئيس الجماعة ولا مفتي الديار ولا قاضي القضاة ولا شيخ الطائفة يضمن لأتباعه نجاتهم لأنهم على رؤية معلومة ومنهجية مبرمجة محددة، ذاك لأن خواتيم العمل عند الموت هي الفيصل في النجاة وهي لا ترتبط بمذهب ولا منهجية معينة وإنما هي مربوطة بالسابقة وعلم الأزل، وقد أشار الإمام الحسن بن علي رضي الله عنه

إلى مثل هذا خلال المحنة التي مرت بها الأمة في عهده فقال: «سُنَّتُكُمْ واللهِ الذي لا إله إلا هو بَيَّنَهَا بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رَحِمَكُمُ اللهُ، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا » [1] .

والسابقة والأزل في مسألة النجاة وشروط الفرقة الناجية في آخر الزمان تبرز من قوله عليه الصلاة والسلام: « ما أنا عليه وأصحابي »، والذي كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه الاستقامة التامة في كل شيء، ومع هذه الاستقامة اقتضت السابقة والحكم الأزلي وقوع العديد من أصحابه صلى الله عليه وسلم في شبهات الهلاك والفتنة، ففي الحديث «لَيَرِدَنَّ عَلَيّ ناسٌ من أصحابيَ الحَوْضَ حتّى إذا رَأَيْتُهُمْ وعَرَفْتُهُمْ اخْتَلَجُوا دُوني فأَقُول: يا رَبِّ أصحابي، فيُقال: إنك لا تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَك.. » [2] .

والأحداث المشار إليه ليس الوقوع في الفتن التي أصابت الأمة قبل أن تظهر مظاهر الإفراط في الاعتقاد، وقبل أن يتهم المسلمون بشبهات الشرك وفساد العقيدة، ولكن النجاة المحتومة لمن ورد الحوض وضمن له ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه

---

(١) استدل به صاحب « صيانة الإنسان في الرد على دحلان » ص٣٣٥، رواه الدارمي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الحوض .

منها: « يا أَيُّها الناسُ إِنّي فَرَطُكُمْ وإِنَّكُمْ وَارِدُونَ عَلَيّ الحَوْضَ، حَوْضٌ عَرْضُهُ ما بينَ صَنْعَاءَ وبُصْرَى، فيه عددُ النجوم قدحان من ذهبٍ وفضةٍ، وإني سائِلُكُمْ حينَ تَرِدُونَ عليَّ عَنِ الثقلينِ فانْظُروا كيفَ تَخْلُفُوني فيهما: الثِّقَلُ الأكبرُ كتابُ الله سببٌ طرفُه بيدِ الله وطرفُه بأيديكم، فاستمسكوا به ولا تَضِلُّوا ولا تُبَدِّلُوا، وعِتْرَتِي أهلُ بيتي، فإنه قد أَنْبَأَنِيَ اللطيفُ الخبيرُ أَنَّهُما لن يفترقا حتى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ » رواه الطبراني والخطيب عن حذيفة بن أسيد[1].

كما ضَمِنَ الرسولُ نجَاةَ المستمسكين بكتاب الله وسنة رسوله على الوجه الصحيح في قوله من رواية الحاكم: « تَرَكْتُ فيكم شَيئينِ لَنْ تَضِلُّوا بعدهما: كتابُ اللهِ وسُنّتي، ولن يَفْتَرِقَا حَتّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ » .

ولا تعارض في مقصود الحديثين، إذ إنّ الأمرَ المقررَ في الحديث الذي رواه الحاكم من شروط النجاة سنةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعد كتاب الله، ومن سنةِ رسولِ الله معرفةُ حَقِّ (الثِّقَلِ الأَصْغَرِ) والاستمساك بهم كما ورد في نص الحديث .

ولا يقال هنا بأنّ الثِّقَلَ الأصغرَ هم الفرقة الناجية وما عداهم فلا، وإنما ننفي هنا دعوى المدعين بأنهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة على غير بيان ولا إشارةٍ نبويةٍ يُستدل بها عليهم، ما سوى الاحتجاج بما يحتج به عليهم غيرهم من الأخذ بكتاب الله وسنة نبيه، لأن كثيراً ممن يدعي لنفسه أو جماعته النجاة -خصوصاً في

(١) ذكره « كنــز العمال » (١٤: ٤٣٥) برقم (٣٩١٩٢).

زماننا هذا- لا يجد المسلم في منهجه ولا منهج جماعته وتطبيقات حياتهم الدينية والدنيوية ومعاملاتهم الأخلاقية مع أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله ما يشير إلى مثال ما كان عليه رسول الله وأصحابه .

والخير للجميع في التعميم لا في التخصيص، إذ لا خلاف أنّ للهِ عباداً في كل مكان، ومن كل أمة من يكون له عند الله سابقة النجاة، وما من صِقْعٍ ولا بلادٍ إلا وفيها من أهل الفرقة الناجية رجال، ولكن ليس هذا الحكم محدوداً بجماعةٍ معينةٍ ولا فرقةٍ محددةٍ ذاتِ اعتبارٍ أو كيانٍ معلومٍ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يؤدب أمته ويعلمهم أن أمر النجاة في الحياتين ليس لأحدٍ بعينه مع أنه صلى الله عليه وسلم سيد الفرقة الناجية وإمامها، فيقول: ((قارِبُوا وسَدِّدُوا، واعْلَمُوا أنّهُ لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ بعَمَلِهِ))، قالُوا: ولا أَنْتَ يا رسولَ الله ؟ قال: ((ولا أنا إلاّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برَحْمَةٍ مِنْهُ وفَضْلٍ)) رواه مسلم .

والذين يصرفون الحديث مصرف التحذير من الاغترار وأن الأمور بخواتيمها وأن المقصود بالحديث هو النجاة في الآخرة يقال لهم: إن النجاة في الآخرة منوطةٌ بالنجاة في الدنيا، ولا انفصام بين النجاتين، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم في مجرى التأديب ينفي عن نفسه التأكيد بالنجاة وهو الرسول المعصوم ويترك الأمر لرحمة الله وفضله؛ فإن القدوة الحسنةَ تقتضي الاتباع لا الابتداع، وأن لا يغتر المسلم بما يراه من نفسه أو جماعته من أعمال بر

وخير أو انتهاج منهج مغاير لما عليه عامة أهل الإسلام بدعوى اتباع الكتاب والسنة - على غير بينة واضحة - ثم يطلق على نفسه الفرقة الناجية والطائفة المنصورة .

والأحاديث النبوية تشهد للعباد الناجين فرادى أو جماعات أنصع شهادة، ولا يستطيع أحد مهما بلغت قوة علمه وماله وجاهه وجبروته ووسائله واحتجاج مسائله أن ينتزع بساط النجاة من تحت عباد الله في كل فجاج الأرض ليحتكره تحت أقدامه وأقدام أتباعه، والحديث الشريف يقول: «طُوبَى للغُرَبَاءِ.. أُنَاسٌ صَالِحُونَ في أُنَاسٍ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ» رواه أحمد .

وقد ذهب القائلون بالتخصيص للفرقة الناجية مذهباً الْتَمَسُوهُ من فهمهم لحديث « لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتي ظَاهِرِينَ على الحَقِّ لا يَضُرُّهُمْ مَن خَالَفَهُمْ حَتّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ » رواه مسلم، فقالوا في معنى هذا الحديث: أصحاب الحديث، وقال الإمام أحمد بن حنبل: إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحابَ الحديث فلا أدري من هم.

ومثل هذا التخصيص ما جاء في معنى الحديث الآخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِن أُمَّتي على الحَقِّ ظَاهِرِينَ على النّاسِ لا يُبَالُونَ مِن خَالَفَهُمْ حَتّى يَنــزِلَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ »، قال الأوزاعي: فحَدَّثَ به قتادةُ فقال: لا أعلمُ أولئك إلا أَهْلَ الشام[١] .

---

(١) ذكره « كنــز العمال » برقم (٣٩٧٢٣).

وفي الرواية الثانية: لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِن أُمّتي يُقَاتِلُونَ على الحَقِّ ظَاهِرِينَ حَتّى يَنــزلَ عَلَيهِمْ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ، قال الأوزاعي: فحَدَّثَ به قتادةُ فقال: لا أعلمُ أُولئِكَ إلاّ أَهْلَ الشّام.

وإذا اعتبرنا قولَ قتادةَ من بابِ الاجتهاد إنهم أهل الشام أو لِمَا كان عليه الحال في الشام من كثرة العلم وظهور مركز الخلافة، فلا بدع أن يكون غير أولئك أيضاً هم أهل الفرقة الناجية ويطبق ذلك القول على ما ذهب إليه الإمام أحمد رضي الله عنه بالشروط المرعية . قال الشيخ العلامة عبدالقادر الجيلاني في « الغُنْيَة » : أما الفرقة الناجية في أهل السنة والجماعة فهم الذين لم يخالفوا ما عليه سلف الأمة الأثبات .

وكأني بالتخصيص اليوم على غير بينة لا يقف على أرض الحقيقة كما وقف عليه قول ابن حنبل والجيلاني وقتادة، فهؤلاء يُسَلَّم لهم فيما قالوا عن زمانهم، وأما عصرنا فلا أقرب إلى الصحة من قول مؤلف كتاب « صيانة الإنسان » مع أن منهجه يخالف ما حكم به، قال بعد أن أورد بعض أحاديث علامات الساعة:

وجملة القول في الباب أن السنة كانت غالبةً في قرن الصحابة خاصةً، ولذا وصفه النبي صلى لله عليه وسلم بالخيرية المطلقة، وأما بعده فقد زالت غلبة السنة؛ ولكنّ قرنَ التابعين وقرنَ تابعي التابعين لم تغلب فيه البدعة أيضاً، ولذا وصف بالحديث بالخيرية الإضافية، وأما بعد انقراض القرن الثالث فقد صارت السُّنَّةُ غريبةً

وأهلُها غرباءَ ولا تزال غربتها في زيادة إلى أن تقوم الساعة، اللهم إلا في زمان المهدي رضي الله عنه وعيسى عليه السلام .

والأمة الإسلامية قد عرفت في تاريخها المرير من هذه الادعاءات عند قوة السلطان والاستغناء عن الغير الشيء الكثير والمثير، ففي عهد الخليفة العباسي (المأمون) ظهر علماء المعتزلة بآرائهم البدعية واستمالوا الخليفة إلى جانبهم، ومن ثم أثاروا قضايا الصراع في بعض المسائل العقائدية بما لم يسبق له مثال، ومنها مسألة القول « بخلق القرآن » .

كتب العلامة أبوالحسن الندوي: رَكّز المعتزلة أقلامهم على هذه المسألة وجعلوها فارقاً بين الإيمان والكفر وشعار التوحيد وشرطاً لصحة العقيدة، وأثارت هذه المسألة بدعةً لم يقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا صحابته، وحمل المعتزلة المأمون على حمل المسلمين على هذه العقيدة سنة ٣١٨ هـ . وبدأ بإرسال كتاب إلى والي بغداد إسحاق بن إبراهيم ذكر فيه أن خليفة المسلمين واجب عليه حفظ الدين وإقامته والعمل بالحق في الرعية، وذكر أن القائلين بقدم القرآن والمنكرين لخلقه شر الأمة ورؤوس الضلالة المنقوصون عن التوحيد، وأحق من يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق بقوله ولا عمله، فإنه لا عمل إلا بعد يقين، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد .

وهذا التقول الذي صرخ به المعتزلة يعتبر مثالاً لما يصرخ به المتأخرون عن سلامة منهجهم وأنهم الفرقة الناجية والطائفة

المنصورة، مع وجود الفارق الكبير بين علماء الفريقين واختلاف الزمان والمكان، وقد كان الإسلام بخير وفيه أمثال الإمام أحمد بن حنبل الصابر على أذى علماء الحكم والسلطان، وأما اليوم فإنما نحن في زمن قد نقضت فيه العرى، وقد تداعت الأمم على المسلمين كتداعي الأكلة على قصعتها، وقد برزت الآيات الكونية منبئة عن علامات الساعة حيث نــزل القرآن، وقد ظهر في ساحة الأوطان المنكوبة علماء الفتنة وشيوخ الحيرة الشاملة. ولا نملك إلا أن نقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير .

الفهرس